

معراج الهداية

دراسة حول الإمام علي عليه السلام ومنهج الإمامة

تأليف

الدكتور سعيد يعقوب

مقدمة المركز

تعتبر الإمامة أصلاً من أصول مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وركناً هاماً من أركانه الأساسية، ولهذا يعدّ مبحث الإمامة من أهم المباحث التي دون حولها الكثير من العلماء والمفكرين، بحيث أدى ذلك إلى إغناء رصيد المكتبة الإسلامية بالكثير من الكتب المدونة في هذا المجال.

وهذا الكتاب - المائل بين يدي القارئ الكريم - يعتبر من تلك الكتب التي اهتمت بهذا الجانب، ولكنها اختلفت عن أمثالها من ناحية الزاوية التي نظر من خلالها المؤلف إلى هذا الموضوع، وهي زاوية قلّ من نظر من خلالها إلى هذا المبحث، وذلك، لأن المؤلف حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس، وحاول خلال بحثه لموضوع الإمامة أن ينظر إليه من زاوية اختصاصه في علم النفس، ولهذا وصل المؤلف عن طريق المنهج العلمي والتحليلي المعمق الذي اتبعه في دراسته هذا المبحث إلى نتائج جديدة حول مفهوم الإمامة.

ويفتخر "مركز الأبحاث العقائدية" أنه يقوم بتشجيع النخبة من المستبصرين على تدوين حصيلة جهودهم في البحوث التي قادتهم إلى التخلي عن معتقداتهم السابقة ودفعتهم إلى الالتحاق بركب أهل البيت (عليهم السلام)، ولهذا أخذ المركز على عاتقه مهمة نشر أمثال هذه الكتب بعد أن تحظى بالمتابعة والتقويم والإشراف العلمي من قبل اللجنة العلمية للمركز. ويعتبر هذا الكتاب اصداراً آخر ضمن "سلسلة الرحلة إلى الثقلين" التي جعلها المركز وسيلة لنشر كتب المستبصرين وأملنا أن يكون هذا الكتاب عن طريق مساهمته في توسيع آفاق ذهنية القارئ حول مكانة أهل البيت (عليهم السلام) وعظمة شأنهم خطوة في طريق خدمة هذه العترة الطاهرة التي جعل البارئ التمسك بها - كما ورد في حديث الثقلين - ضماناً لعدم الانحدار في أودية الضلال.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

مركز الأبحاث العقائدية

فارس الحسون

دعاء:

ربّ ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.
ربّ اجعلني أتقرب في هذا العمل إليك واجعل طريق الإمام علي (عليه السلام) طريقي فهو طريق الرشيد ومعراج الهداية وسفينة الوصول إلى الله تعالى والرسول (صلى الله عليه وآله).
رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

مقدمة

الكتب التي انصرف مؤلفوها نحو تناول شخصية الإمام علي بن أبي طالب بالدرس والتحليل كثيرة جداً، والكتب التي ذهبت تتفحص ما كتب حوله في التاريخ، ليست فقط لدى المسلمين، بل وعند سواهم من الديانات الأخرى أيضاً كثيرة، كما أنّ الكتب التي اكتفت بالحديث عن فضائله ومنزلته وما قدمته للإسلام وللإنسانية جمعاء كثيرة.

وهذا لا يعني أنّ خزائن معرفته قد امتلأت، ولا يعني أيضاً أن العالم لم يعد بحاجة إلى المزيد مما يكتب عنه، بل على العكس، إن الذي كتب عن الإمام عليّ (عليه السلام) على كثرته وأهميته، ما يزال يعاني من مساحات شاسعة من الفراغ الذي يبحث عنّ يشغله.

وإذا كانت الكتابات تصبو نحو الإحاطة الكلية بهذا الرجل العظيم؛ فإنها لم تتمكن من ذلك لا لأنها قاصرة، بل لأنه أمضى عمره الشريف مهتماً بالشؤون الدنيوية والأخروية في آن معاً، وهذا ما لا يتوفر لكاتب أو باحث أو مؤرخ أن يحيط به أو يفعله! وإنما يأخذ طرفاً من هذه، أو طرفاً من تلك، لتلمع في ذهنه فكرة تأخذ طريقها إلى تدوين إضافة جديدة في سجل فهم ومعرفة الإمام (عليه السلام).

ولا نظن أننا سنبلغ أكثر مما وصل إليه غيرنا بكثير، وإنما نرغب في دخول غمار البحث، راجين من وراء ذلك الفائدة والبركة من جهة، وساعين نحو إثارة فكرة نراها جوهرية في فهم ماهية الإمامة من جهة ثانية. وسيكون لنا في مسيرتنا البحثية مواطن متعددة نفق عليها واحدة تلو الأخرى، وتدور البحوث هنا حول ثلاثة محاور رئيسية هي:

المحور الأول: يدور حول إظهار ماهية الإمامة، في تناول يعتني بالجانب النفسي والاجتماعي من حياة الإنسان، وهذا الجانب هو الذي قادنا إلى تفصيل معنى الإمامة من الناحية اللغوية ومن ناحية الاصطلاح. ولهذا المحور اتجاه نحو فهم شامل للإمامة، لا على أنها قيادة سياسية أو زعامة اجتماعية، أو على أنها نهج متقدم في شؤون الحياة، وإنما بما هي مصداق للنزوع الإنساني نحو الغاية من الوجود، ونحو الملاذ الذي يحتّمى بكنفه، ويسعى من أجل بلوغه.

المحور الثاني: يدور حول انطباق هذه الماهية في النتيجة على شخصيات محدودة، تمارس مع تتابع الأزمنة أدواراً رسالية من جهة، وتمثّل مرتكزاً هو من أهم المرتكزات العقائدية لدى البشرية كلها. وهنا سوف نتوسّع في استعراض النصوص المقدسة التي تؤيد ما ذكرناه، ونجلو بعد ذلك الصورة التي بلغناها في معرفة هذا الانطباق.

المحور الثالث: وهو المحور الذي يكون لنا فيه سياحة مع الكيفية التي مارسها الإمام عليّ (عليه السلام) في إرساء دعائم خطاب الإسلام الإنساني، وهو هذا الخطاب الذي باشره النبيّ الكريم محمد (صلى الله عليه وآله)، وكانت البشرية جميعها هي المقصودة من ورائه، وليس فقط فئة من الناس، ولا أمة من الأمم.

ولمّا كانت الإمامة مسألة من المسائل التي لا يمكن فصلها عن الإسلام بحال من الأحوال، لما تشكله من دور في حياة المسلمين، كان تناولها من أكثر الأمور حيوية وإثارة، وذلك لأسباب عديدة: منها أنّ فريقاً من المسلمين عدّها فرعاً من فروع الدين، وعمل على إخراجها عن دائرة الأصول، مع ما تستحوذ عليه من جدل يخرجها عن الفروع ويجعلها من الأصول! وعند النظر في ما سجّل وقيل عنها، يلاحظ المهتم أنها دخلت مجالاً من التعصب كما سنشير إلى رأي الغزالي خلال البحث، وفي الواقع ليس للغزالي وحده هذا النمط من الرأي وإنما سلك هذا المسلك أكثر أهل السنّة، وسنجد تفصيل ذلك بحول الله في مكانه من كتابنا.

والحقّ أنّ عملنا هنا ينصبّ بالدرجة الأولى على مفهوم الإمامة، وليس على وظيفة الإمام، مع ما سيكون من فروع تتفرع عن هذا الفهم، لأنّ الانطلاق من المفهوم إلى المصداق هو الذي يعين على تلمس معرفة أسباب الاختلاف الذي نشب بين الآراء التي بحثت موضوع الإمامة في الإسلام، ونحن نعلم المدى الذي شغله هذا الموضوع من الفكر الإسلامي، لكن الأمر أوسع من

ذلك، فهو موضوع في الواقع يشغل مساحة كبرى من الفكر البشري عموماً ومنذ أقدم الأزمنة، بمعنى أنه ليس بدعة خاصة جاء بها الإسلام، بل وفق المنهج الذي تبنّيته، يتبيّن أنّها في عمق الحقيقة البشرية وعمق النفس الإنسانية، أي أنّ الإمامة ضرورة إنسانية وليست ضرورة مذهبية أو دينية مع ما يمثله الدين من ضرورات في حياة الناس.

وقد أخذ الجدل في التراث الإسلامي حول هذا الموضوع بعداً متميزاً، بحيث نجد من يعتبر الحديث في الإمامة من غير المسموحات، وأنّ الخطر كل الخطر في الاقتراب منه! ونجد أيضاً نقيض هذه الفكرة لدى أطراف أخرى، كما نجد من وقف في المنطقة الوسطى بين هذين الأمرين، فلهذا رأينا أنّ المجال يتسع لحمل هذا الأمر محمل البحث الجديد لما فيه من خير وفائدة، مستعنيين - بالإضافة إلى العلوم المتبعة في هذا المجال - بعلم النفس الذي يقدّم لنا خدماته في هذا المجال، والذي هو مجال تخصصي ودراسي.

والجانب الآخر الذي رأينا أنه من الضرورة بحثه أيضاً، هو الجانب التطبيقي لما تصل إليه نظرية الإمامة. ولما كان الإمام علي(عليه السلام) هو المثل الأعلى للإمامة عند كافة المسلمين لما حفل به من قدسية، بحيث لو ذكرت كلمة الإمام ككلمة مفردة لتبادر إلى الذهن فوراً الإمام علي(عليه السلام)، ولما تمتّع به من صفات الإنسان الكامل، الذي قصدت مجمل الديانات السماوية والفلسفات الكبرى سبيل بناء الإنسان بناء يسير به نحو أن يحذو حذو هذا المثال، لذلك فقد اخترنا أن نتحرك داخل أجوانه، ونتعرف على حقيقة الهدف الإلهي من وراء جعله إماماً للناس كافة، وهذا لا يتحقق يقيناً بغير ما ينبغي أن يعرف أولاً عن مفهوم الإمامة، ثم بعد ذلك قد تنكشف الحجب وتظهر للمهتم الصورة العلوية المباركة. وقد سعينا في الختام أن نربط الإمامة تاريخياً بالبعد الإنساني عامة، إدراكاً منا أنّها لم تنقطع يوماً من الأيام، ولم تنفصل عن مسيرته البشرية، ولم يتأت هذا الإدراك اعتباطاً، بل جاء متوافقاً مع نتائج علوم جمّة تناولت التاريخ الإنساني بأبعاده الحضارية وما فيه من إرث يسجل تطلع الإنسان إلى هدف يسعى من أجل بلوغه وإلى ملاذ يلجأ إليه وإلى مثال يتطلع نحو كماله ويعده الغاية النهائية لحقيقة سعيه.

من هنا، كان منهجنا في دراسة خطاب الإمام علي(عليه السلام) على أنّه خطاب موجّه للإنسانية جمعاء، ينطلق من حقيقتين: الحقيقة الأولى: تتمثل في أنّ الإمامة ضرورة فطرية تسعى نحوها النفس البشرية كافة، وهذا متوافق مع المشروع الإسلامي وعالميته، وقد تبيّن لنا أن الناس منذ أقدم أزمانهم يتمتعون بالتطلع نحوها، والبحث عنها.

والحقيقة الثانية: هي الدور الذي نهض به الإمام علي(عليه السلام)، ليس باعتباره فقط إماماً للمسلمين، بل بما هو مصداق واقعي لذلك السعي الفطري الإنساني الباحث عنه.

وختاماً نسأل المولى عزّ وجلّ السداد، ونرجوه القبول.

وهو من وراء القصد

المدخل

لا بد لنا قبل التحدّث عن الإمام علي(عليه السلام) ومنهجه وطبيعة خطابه الإنساني، من تسليط الضوء على الحدود اللازمة لمعرفة طريقة تناولنا له(عليه السلام) هنا في هذا الكتاب.

لذلك لا بد من الإشارة إلى أنّنا استخدمنا كلمة (الإمامة) هنا كاصطلاح إجرائي، ينفعنا في تبیین أمر تلمسنا جوانبه من خلال اشتغالنا بالطب النفسي بالدرجة الأولى، وبالدور الذي تمارسه علوم النفس في الكشف عن سرانر الإنسانية وإضاءة جوانبه المظلمة.

وقد كان لنا مع مصطلح الإمامة عمل رأينا أن نقدمه في كتاب يشرح أبعاده، واتضح لنا أن خير من يجسد هذا المصطلح، هو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لما تمتعت به شخصيته من تمكين وتجسيد لمفهوم المثال الذي دأبت الرسائل السماوية والفلسفات الوضعية على إظهاره للناس كما ذكرنا.

لذلك قد نحتاج أن نوضح هنا، أنه رغم اطلاعنا على الطرق التي تناول فيها العلماء والكتاب في التراث الإسلامي مبحث الإمامة، إلا أننا نحونا منحى آخر اجترحناه لأنفسنا، ونجد أن لهذا المنحى دوراً في تظهير مشهد المعرفة البشرية الدفينة، وإعطاء الصبغة الجلية لها.

ومن البيّن أن المسلمين اتخذوا لأنفسهم مذاهب في شرح وتعريف الإمامة، وهذا أمر علمي وعملي، فهو الذي يساهم دائماً في قذح شرارة التجديد كلما لوحظ أن تلبداً ما قد أخذ يطرأ على الأذهان، فالحيوية التي يتمتع بها الفكر الإسلامي هي التي تميّزه عن بقية الأفكار الموجودة على الأرض، ونقصد دائماً ذلك الجانب الجدلي الفعّال في بنية المعتقد الإسلامي، فهو فكر متوثب لا يركن إلى الجمود.

إذن، فالمناهج المتبعة والمذاهب التي يعمل بها الفكر الإسلامي هي ضرورة حيوية، من ضرورات وجوده وبقائه متجدداً باستمرار، ومن الخطأ أن يفهم أن الفكر الإسلامي فكر محدد بأطر لا يمكن تجاوزها، أو الحيد عنها، وإلا لكان أقل على العقل المسلم منذ نهاية العصر النبوي، وأحكم إغلاقه، فلا يقدر بعدنذ أن يبني لنفسه ما يؤهله لدخول ساحات التقدّم العلمي والتقني، لعدم حيازته على ترخيص من سالف الزمان.

والواقع أن العكس هو الصحيح، فالعقل الإسلامي عقل مدقق فاحص باحث عن المعرفة، سائر إلى تطبيق مناهجه في كل زمان وعلى كل أرض، والذي يمكن من ذلك كما تقدّم هي العملية والعملية المنبثقة من الدفع الحيوي الذي يحظى به المعتقد الإسلامي.

بهذا الشكل من التفهم والتعقل، نجد أن المذاهب التي تناولت الإمامة في الإسلام وبذلت قدراً من الجهد في هذا المجال رأت أنه يكفيها في حينه، كلّ بحسب تطلعه وعلمه، وهذا لا يمنع الدارس من تناولها بالفحص والعناية، لإظهار منافعها من جهة، ولإبعاد ما يمكن أن يكون غير نافع في هذا العصر من جهة ثانية.

وبذلك يستمر الفكر الإسلامي بالتجدد، وليس ذلك بنقديس القديم بما هو قديم فحسب، لأنّ الأشياء المقدسة وغير القابلة للنقد لم تكن محل نزاع بين المسلمين، بل هي تستحوذ على احترام الجميع بلا اختلاف، وإنما الذي ينشأ حوله النزاع، ذلك الذي تشتق منه فكرة أو يستخلص منه رأي أو تصاغ حوله الموضوعات، أما الثابت المقدس كالتوحيد مثلاً، والقرآن الذي هو الكتاب الجامع لكلّ مسلم على وجه الأرض، ونبوة محمد (صلى الله عليه وآله) و...، فهي أمور لا اختلاف حولها. أما باقي المفاهيم المنتزعة من هذه العقيدة بعد ثبوتها فإنها مجال للتناول، ولا نرى غصاصة في إجراء الحوارات، والمناظرات حولها، وهي جارية منذ أرفق سبحانه بنبيّه (صلى الله عليه وآله) وتوفاه إلى جواره، ولا نعتقد أن عصرًا خلا ولم يتناوب أهله في المناظرات والمجادلات حول تفاصيل جمّة، منها ما هو عقيدي، ومنها ما هو تأملي، ومنها ما هو سفسطي... إلخ.

فالخير كلّ الخير في استمرار المباحثات بين المسلمين، والخطأ كلّ الخطأ في إقفال بابها، وإلجام حوارها، فهي معين يروي ظمأ العطشان، وجنة تورف بظلالها، وتكثر ثمارها، وينبعث النفع منها كالريح الطيبة العطرة.

من هنا نجد أن الإسهام في دفع هذه العملية واجب وضرورة، واجب على من توهله ملكاته ومعارفه ويملك آتته في دخولها، وضرورة من ضرورات التواصل بين المسلمين وشدّ أواصر القرية، وقطع دابر الفتنة وما ينجم عنها من ويلات وسينات تحصد الثواب، وتنزل الويل.

ولما كانت الإمامة من المسائل ذات الخصوصية العالية في الفكر والمعتقد الإسلامي، كان الاشتغال فيها أمر دائم، وكانت الأقوال فيها تتراوح بين منحيين أو اتجاهين:

الاتجاه الأول: يدور حول حقيقتها، دوران الموارد غير الموضح تماماً لما يريد أن يقوله فيها.

الاتجاه الثاني: إحكام دائرة الفصل فيها، والقطع بأنها منحة تحفل بالعناية الإلهية، لا يصيبها أحد وإنما تُصطفى، مثلما حدثنا القرآن الكريم عن الصفوة الأولى التي اختارها الله سبحانه.

ولهذين الاتجاهين تفرعات متعدّدة، منها من انفتح على الآخرين، ومنها من انغلق على نفسه، وقد رأيت بحثها مع الباحثين، وأن أفرد لها جوانب من هذا الكتاب، ثم بعد أن تصاغ النظرية التي نعتقد أنها تشتمل على آراء الاتجاهين، ونقول ما آلت إليه النتائج، نبسط أيضاً ما توصلنا إليه في هذا العصر الذي يمتاز بالعلم الوفير الذي زود الله تعالى الناس به، والإمكانات التي أتاحت للتعرف على حقائق لم يكن للذين سلفوا الحظ منها، وبخاصة الجوانب النفسية التي تشغل بال الإنسان بشكل يومي. فما هي الإمامة، وما معناها، وما الفائدة من بحثها، وما ضرورتها عند المسلمين وعند سواهم؟ هذا ما تتولى الإجابة عنه الأبحاث القادمة.

ونبدأ باستعراض سريع لعدد من الآراء المعتمدة عند المسلمين حول هذا الأمر مقدمين لذلك الفصول الآتية:

الفصل الأول: الإمامة ماهيتها ومعناها

يجد الباحث في معرض التساؤل عن ماهية الإمامة في التراث الإسلامي إجابات متعدّدة ومتنوّعة:

- منها من حملها على أنها أمر يختص بالزعامة والقيادة أو الرئاسة.
- ومنها من تناولها على أنها فكرة وأدخلها حيز التصورات التي تبحث لها عن تصديق.
- ومنها من سار بها نحو التأمّلات الفلسفية التي تحتمل في تحققها الخطأ مثلما تحتمل الصحة.
- ومنها من رآها شأنًا إلهياً كالنبوة، ليس للناس من قرار فيه.
- وهناك من نأى بها عن فنّ المعقولات وسار بها نحو الفقهيّات، يريد بذلك إدخالها منطقة الاستنباط، وإخراجها عن دائرة الأصول التي يبحر العقل وراء إدراك كنهها، ويرتفع بها عن مقام المعاملات، ليصير إلى فلسفة المعرفة.
- لكن أصحاب هذا الرأي الأخير لم يدركوا أن الطريق الذي تبحث فيه مسألة الإمامة ذات منحى عقلي تأملي، أكثر من كونه استنباطاً لحكم، أو إقراراً بحلال وتحريم لحرام.

ويرد على سبيل المثال هنا لا الحصر كلام الغزالي في معرض شرحه لموقفه من موضوع الإمامة حيث يقول: "اعلم أن النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فنّ المعقولات، بل من الفقهيّات، ثم إنّها مثار للتعصبات والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ! ولكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد..."(1).

لا يخفى أن المعتقدات شيء والفقهيّات شيء آخر، وللغزالي باع في الأمور الكلامية التي تصب في فلسفة العقائد، وربما داخل هاتين الإشارتين نجد مساحة للتحرك، مفادها أن إقصاء الإمامة عن أصول العقيدة وإدخالها في باب الفقه ليس في غاية الإحكام، بل هو مجال لاستمرار البحث فيها، ولا تلتزم مفردة "اعلم" التي يستخدمها المعلمون المسلمون قديماً كختم أو تمام للفكرة، وإنّ على المهتم أن لا يعتبر ما جاء هنا هو ذروة الصواب، بل كما أسلفنا يجب أن تتحرك المسائل ضمن مضمار الأخذ والرد، ولا تقفل الأبواب أو تقطع الطرق على الراغب في الاستزادة.

ولا ندري إن كانت تنفع مفردات مثل "المعرض عن الخوض فيها أسلم من الخاض فيها"، أو "إنها مثار للتعصبات"، أو "مثار للفتن والشحناء" (2) يُقصد منها الكف عن البحث في الإمامة وإقامتها، أم يقصد فيها إثارة ذهن الباحث نحو جلاء مثل هذه الحقيقة! وأرى ترجيح الثانية، والسير على هذا الترجيح.

ويتضح لي أن الإمامة مفهوم جميع ما تقدم، وعلى هذا المفهوم تترتب النتائج التي تكون أكثر شمولية، وأشد تعبيراً من المناصب الإدارية أو السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية، لكن لبلوغ هذا المفهوم يحتاج الراغب لمزيد من العناء، ولا نقصد بالعناء هنا المشقة من أجل الوصول إليه، لأن الإمامة والإمام أمر لا ينبغي معه الغموض، مثلما لا يجب أن ينشأ حوله خلاف من نوع ذلك الذي يقسم الناس إلى فرق وأحزاب، إنما الواجب أو الضروري - بمعنى الحتمي - أن يكون الإمام هو الجامع والرابط بين الناس، الجاذب لهم والموحد لأواصر التقارب والتلاحم فيما بينهم، هذا هو الأمر الطبيعي والسليم، الذي يرسل الله تعالى الأنبياء عادة ويزودهم بالأوصياء من أجله.

أما مخالفته، فإنها تدخل في باب مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الأمر الذي يلزم عنه بالضرورة شعور الإنسان بالضيق وقسوة العيش، لأن الإعراض عن الفطرة الإلهية والإعراض عن سبيل الله هو الذي يورث المشقة، وهو الذي يجعل الإنسان يتخبط على غير هدى.

وليس المقصود بضيق العيش هنا: الاحتياج والفقر، أو الشعور بالظلم وما شابه ذلك، إنما المقصود هو اغتراب النفس وابتعادها عن راحتها وطمأنينتها بالدرجة الأولى! فكم من موسر، وكم من جبار، وكم من أولئك الذين يتصور الناس أنهم بلغوا رتبة السعادة في الحياة الدنيا، تجدهم في حقيقة أمرهم يعانون من آلام القلق والاضطراب، وعدم الاستقرار والسكينة. ويجد المتابع للمنهج القرآني أن نزوة الدعوة لديه منصباً على إخراج هذا الكائن البشري من مثل هكذا ضيق، والدفع به نحو مدارج السعادة، لكن هذا لا يتحقق بحسب الطرح الديني على أساس حلّ المشكلات الحياتية اليومية كما يتصور البعض، وإن كانت الراحة شيء حاسم في هذه الحلول، وإنما يتحقق على أساس فك رموز الوجود والتعرف على معناه، الأمر الذي يوطد لمعرفة الغاية من ورائه، وعند هذه المعرفة بالذات تستوي اللذائذ الدنيوية مع الآلام، لتشكلان بالنسبة للمعارف بهذه الحقيقة بُعداً مادياً ليس هو المقصود من وجوده، فيتألق في السير نحو بعده الحقيقي، الذي هو جوهر ذاته.

وهنا عند هذه النقطة تكمن أهمية معرفة الإمام، بحسب ما جاء عن الإمام الرضا (عليه السلام) في معرض وصفه للإمام، أنه "معدن القدس والطمأنينة" (3).

ولا نخال أمراً أكثر عسراً وأكثر إبعالاً في التشويش من ذلك الذي يجرف المرء نحو الشكل وينأى عن المضمون، لذلك وجدنا هذا الجدل وهذا الصراع - إن صحت العبارة - حاصل بين من يعتبر أن الإمامة أمر دنيوي يمكن أن يقوم به ويتكفل بتنفيذ مهماته شخص يتمتع بصفات معينة أو قدرات أهله أن يتربّع على كرسيها، حتى يدير شؤون الناس ويمارس زعامته وإمكاناته في رناستهم، وبين من يعتبرها شأنًا إلهياً صرفاً يجعله في من يختار من عباده، ولا يكون بعد ذلك من هدى واقعي بمخالفة هذا القانون.

والحديث الآن حول مفهوم الإمامة، ثم نتحدث بعد ذلك عن ماهية الإمامة.

ما هو المفهوم

يرمز المفهوم عند المناطقة إلى ما ينتزعه الإنسان من الخارج من حقائق الأشياء مشكلاً بذلك صورة ذهنية لها (4)؛ وهو الشكل المنطقي الذي تبني من خلاله باقي أشكال الفكر (الحكم - القياس) ويتيح التعمق في معرفة الواقع أبعد مما يسمح له الإحساس والإدراك والتصور وهو في النتيجة "خروج عما يعطى لنا مباشرة من التجربة الحسية" (5).

ونحن عند اختيارنا لهذا التعريف، رمينا إلى ما يقود الفكرة نحو عمقها، للخروج بها عن معطيات الظاهر، بالطبع بعد أن أخذت شكلها وتسميتها بالنسبة للتجربة الحسية التي ندرکها كما أدركها من سلف، لأن الشيء لا يُعد موجوداً بالنسبة لشعورنا إلا عندما يلد فكرة تصبح برهاناً على وجوده في عقلنا، وعندما يتيح ذلك يصبح حضوره وجوداً حقيقياً، وحينئذ تتكشف شخصيته ويوضع بالتالي اسم يطلق عليه، تلك هي عملية الإدراك (6).

فالاسم هو أول تعريف للشيء الذي يدخل نطاق شعورنا، وهو تصديق على وجوده، وهو بهذا الوضع أول درجة من درجات المعرفة وأول خطوة نخطوها نحو العلم، وإذا كان الاسم بهذا المعنى هو الدرجة الأولية في المعرفة، فإن المفهوم هو الدرجة الأوسع والأشمل، وهو الذي يمنح لهذا الاسم معناه.

لذلك عند إطلاق تسمية (الإمام) على الرجل الذي يتزعم أو يقود نجدها لا تصلح لأن تبلغ مفهوماً! بمعنى أن الأمر هنا هو انطباق المصطلح على من يقوم بتنفيذ أمر ما، وهذا لا يقود نحو تجريد الاسم وبلوغه المعنى الذي يتيح التعمق وبلوغ الحقيقة التي هي شيء غير القيام بالفعل، وسوف نجد مثالا على هذا في قول ابن حزم مثلاً "إن الأمة واجب عليها الاتقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله (صلى الله عليه وآله)" (7).

وينبغي علينا أن نفرق تماماً بين القائم بالعمل على أن هذا العمل أمر موكل إليه من قبل الناس، لبراعته فيه وتمكنه وفق مؤهلات تملكها، أو سلطان خوله القيام عليه، وبين الإمام بالمفهوم العميق الذي أورده الإمام الرضا (عليه السلام) عند وصفه للإمام، فهو لا يزجي إليه مهمة تكون ضمن إمكانيات العاديين من الناس، وإن اشتمل بالعرض عليها، وإنما هو يتعمق إلى جوهر الإمامة، فيقول (عليه السلام): "الإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة... نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله عز وجل، ناصح لعباد الله..." (8).

إذن بعد النظر إلى وجهة ابن حزم، التي يمكن أن تعبر عن معظم من تحدث حول الإمامة ووظائفها من الخارج، والتأمل في توصيف الإمام الرضا (عليه السلام) وما يتفرع عنه من آفاق تقود نحو الكشف عن حقيقة الإمامة ومعناها وجوهرها، نجد لزاماً قبل الاستغراق في متابعة هذين المنحيين في التناول، أن ننظر في الجذر اللغوي لكلمة (إمام)، الأمر الذي يساعدنا على تخطي الكثير من صعوبات البحث.

الإمام في اللغة

جاء في الصحاح: "هو الذي يقتدى به" (9)، وكما هو واضح هنا فهي تفيد التعميم، ولا تختص بتفصيل يقود إلى معنى دقيق وحقيقي، فالذي يقتدى به يمكن أن يكون شخصاً يتمتع بالفطنة والذكاء، ويمكن أن لا يكون كذلك، ويمكن أن يكون آله، ويمكن أن يكون معلماً من معالم المنفعة، بالطبع نحن نعلم أن المقصود هنا إجمالي، لكن حديثنا يجب أن يعطف على الفور على رغبتنا في إظهار المفهوم، لذا تقتضي الدقة أن يحاط بجميع أطراف التعريف، حتى يصار إلى انتزاع المفهوم الذي يتيح التعمق كما سبق.

وجاء في لسان العرب: "أم القوم وأم بهم: تقدمهم، وهي الإمامة، والإمام: كل من أنتم به"، ويفصل ابن منظور هنا فيقول: "يكون الإمام رئيساً كقولك إمام المسلمين، ويكون الإمام الطريق الواضح، ويكون الدليل، ويُنيْم: يُقصد" (10).

وأورد من محيط المحيط في إظهار معنى الإمام من الناحية اللغوية قوله: "فالإمام هو قيم الأمر، والمصلح له" (11).

وقال الراغب: "والإمام المؤتم به إنساناً كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محققاً كان أو مجملاً، وجمعه أئمة" (12).

هذه الطائفة من التعاريف اللغوية تشير بأشكالها هنا إلى عدّة معانٍ، وإن بدت جميعها تبحث عن إجمال المعرف وتحديدّه، لكن لكل واحد منها فيما يبدو شكلاً مستقلاً إلى حدّ ما عن الآخر، وإتّما في عمومها تشير إلى من يحمل صفة التقدّم والإمساك بزمام الأمور بما فيها الزعامة، أي رناسة القوم والمرجعية العقائدية، أي المرتكز الفكري والدليل الذي يحدّد الاتجاه. وكذلك تفيد الإشارة إلى صاحب المقام أو المنزلة الذي يقصد لجلال معين، وتظهر أيضاً أحد معانيها القيام بالأمر الاجتماعي، والمحافظة على أمور تمّ التوافق عليها عند ذكر كلمة (قيم) أو (مصلح).

فقد أخذت هذه التعريفات بمحاولة الإحاطة بالهدف، لكنها كما يلاحظ تخفق في إصابة كبد الحقيقة! وهذا الأمر ليس مستنكراً لدينا، فالمعنى المقصود أوسع بكثير من العبارة، لذلك يمكننا أن نعتبرها تمهيداً معقولاً لإجراء اختبار موضوعي على مصطلح الإمام وفق المتّجه النفسي الذي نجريه هنا، والذي نمهد له بالتالي.

الإمام في عمق النفس البشرية

إنّ ما تقدّم من البحث في التعريف والمفهوم، يساعدنا على القول، أنّ الإمام المرجو الإفصاح عنه خفي على الظهور، بقدر ما هو واضح وجليّ في عمق النفس الإنسانية.

وسنحاول هنا أن نعمل على نقل هذا الوضوح من العمق إلى السطح بالمقدار الذي يمكننا من إزالة الحجب، حتى تصبح الإشارة فيما بعد إلى حقيقة الإمام إشارة لا يشوبها غموض. وقد أمعنا النظر في الوارد هنا من تعريفات، ولاحظنا أنّها تعطي تقريباً لغويّاً للمفردة، وفي عدّة أمكنة نلاحظ سيراً أشدّ عمقاً نحو إلحاح المفردة على إظهار معنى أكثر عمقاً، وهذه حاجة ضرورية، إذ أنّ التفسير اللغوي يعتني عادة بالإبلاغ عن الأمر أكثر بكثير من البحث في جوهره ومعناه الحقيقي. وإن الذي يساعد على ذلك فيما يبدو، نسق آخر من أنساق التفتيش خلف هذه الحقيقة وسنجده هناك في عوالم النفس.

فثمة في عمق الإنسان ذلك التطلع نحو هدف تنشده نفسه، وعندما نتحدث عن الإنسان فإننا لا نحصره بعرق أو قومية أو دين إنما عني منه مطلق الإنسان، شريطة أن لا يكون فاقداً لقواه العاقلة الواعية. والهدف الذي تنشده النفس في عمقها يكاد يكون على درجة عالية من الغموض، ولعلّ هذا الغموض من شأنه أن يجرفها نحو عدّة اتجاهات، مع ملاحظة الاختلاف في طبائع البشر، وشدة أو ضعف الأحاسيس إنّما في الغالب وفي نهاية المطاف تحمل تلبية الحاجة المستقرة في أعماقها، لأنّ الدأب والبحث سوف يصلنا إلى تلبية لا بد منها، تشعر معها النفس بشي من الاطمئنان، بخلاف ذلك الاضطراب والقلق.

يقول أريك فروم: "لا يوجد إنسان ليس محتاجاً إلى دين ما، ولا يريد تحديداً للاتجاه والموضوع الذي ينبغي له التعلق به"

(13) يريد بهذا القول: إن الغرض الدفين في العمق الإنساني هو هدف يسير بالإنسان باتجاه تعلق من نوع ما باتجاه نداء يسحبه من أعماقه، دون أن تكون لديه المقدرة على تجاهله، وإن هو تجاهله لوقت أو لحال من الأحوال فإنه ينقذف - في لحظة معينة من داخله - شعور يجعله يضطرب متساءلاً عن فحواه، فمتى قاده هذا الشعور إلى عقيدة أو دين أو إيمان من نوع ما فإنه سوف يسعى لأن يعبر عنه بأيّ طريقة تتناغم معه، وتشعره بانتهاء قلقه، أو انتهاء شي منه.

فالنظر إلى الحقيقة الإنسانية من هذا الجانب العميق، هو نظرة إلى الفطرة، ولعلّ الفطرة وحدها هي التي تتكفل بتفسير هذا النزوع نحو الاتجاه الذي يلزم فكر الإنسان بالتجول في أبحاثه.

الفطرة

لعلّ المقصود بالفطرة هنا: هي تلك الأهلية المتوفرة داخل النفس والتي تشير إلى أكثر حالاتها صفاءً، قبل دخول وتراكم المعارف عليها، وهي بهذا اللحاظ تعبر بصورة مثلى عن الاحتياجات التي تجذب نحو تعلق الإنسان.

ومن المستحکم یقیناً أنّ التدين أمر غریزی، أو فطری.

والتدين بأحد المعاني، هو اعتقاد من نوع ما، يستلزم فكراً مجرداً من جهة، ويستلزم أيضاً تعلقاً عاطفياً من جهة أخرى.

وهو من هاتين الجهتين يحقق انسجاماً وتناغماً مع الإنسان، بما يشتمل عليه ذهنه من أمور تعمل وتسير نحو التجريد والبحث عن حقائق الأشياء وانتزاع المفاهيم الخاصة بها، وإقامة البراهين والأدلة العقلية على نظريات تلزمه في حياته، وبين ما تحتاجه النفس من اتساع وخروج خارج الأطر والحدود المادية، بما يساعدها على سدّ بعض الثغرات التي تعثرها، وتسبب لها الاضطراب والقلق.

ولعلنا حين نتردد في بحثنا هذا على النحو الذي يعطي ثماراً بعد الإحاطة بالغاية، فإن هذه الثمار سوف لن ينالها من لم يتغلب على العوائق التي تهمين على النفس، والتي تنشأ عادة من تراكم المعلومات التي يكتسبها الإنسان عن طريق التقليد وسائر الأسباب الاتفاقية، والتي تترك لها أثراً فيه، ينفعل معها بما يلائمها (14).

ونحن إذ نتطلع إلى الإمامة، فإننا ننظر في مفهومها وفي ماهيتها باعتبار الحاجة إلى معناها الذي تقوم عليه الدلائل، عندما يصر إلى المفارقات التي تنسجم واقعتها معها، ورأت فيها أدواراً يؤديها هذا الكائن البشري أو ذلك، لما يتجلى به من ميزة، أو فضيلة، أو مكرمة، أو ما شابه ذلك.

لذا فالمعرفة الإنسانية من جانب البعد التركيبي النفسي، ومن ميدان السبر والتحليل الذي ينطلق منهما مفتاح الدخول إلى أغوار النفس البشرية، وجدنا في هذا المكان مجالاً لقراءة الدافع أولاً نحو التدين، ثم الغاية التي تتلو آياتها مفردات السير نحو مدرج الكمال.

وهنا نستعير هذا المقتبس من صاحب تفسير الميزان، حيث يقول: "إنّ على الإنسان أن يتجرد عن جميع معلوماته التي اكتسبها عن طريق التقليد" (15) يريد جلاء الفطرة وإظهار حقيقة النفس بدون شوائب، وهو إذا بلغ ذلك عن دراية وعلم، فإنه يتحرك سائراً نحو مراتب المعرفة الجوهرية الحقّة، والتي تقوده يقيناً إلى غاية سوف نصل إليها مع متابعة بحثنا حول التدين. وإذا كان في علماء النفس من قال: "إن الدين غريزة في الإنسان"، فإنّ هذا القول لم يفارق الحقيقة، لا لأنه صدر عن عارفين بواقعها، وإنما لأنّ الجاذب للنظر أنّ الأطوار التي مرّت بها البشرية منذ القدم، وما تركته حضارات الأمم السابقة، يقطع الطريق على أولئك الذين يقولون باختراع الدين الناتج عن حاجة الإنسان الظاهرية إلى قوّة يرهبها.

ومن المتيقن أنّ مثل هذه الحاجة ليست ظاهرة، بل هي - إنما وجدت - للتعبير عن التعلق الكامل، وليس عن التعلق الناقص، وهنا ينبغي لنا أن نعترف بأنّ هذا الدافع نحو التعلق بأيّ شيء هو ناتج عن حاجة، لأنه لو لم تكن هنالك حاجة لانتفى وجود التعلق، والأمر بهذا اللحاظ غير منقطع إلى حاجة دون سواها، بل هو مسار تتابعي.

فإن ذهبت الرغبة نحو طعام مثلاً فإن مجرد الحصول عليه وتناوله يكفي لقضاء هذه الحاجة، وبالتالي لا تكون هدفاً سامياً يتوجه إليه الإنسان بالكلية، وهكذا سائر الحاجات مما يمكن تلبيتها، أو تحصيلها أو القبض عليها، من قبيل المال والسلطان واللذائذ جميعها، فإن إمكان الحصول عليها لا يجعلها هدفاً نبيلاً يستحق أن يسقط الشهداء من أجله مثلاً مع الاحتفاظ بما يبذله الإنسان من جهد ومشقة، ومن أجل تحصيل هذه الحاجات، وإنما الذي يستحق أن نحث السير إليه هو ذلك الذي يجعل الإنسان في لحظة من اللحظات باحثاً عن غاية غير دنيوية، أي مندفعاً نحو إشراق تتحرك إليه جوارحه بلهفة، وراغباً في صرف تعلقاته القلبية عن الغير، متوسلاً صرفها نحوه (16).

ولا يمكن بلوغ مثل هذا الشعور إلا عبر التجرد، لأن شعوراً ينبع من حاجة تلح دائماً ولا تشبعها اللذائذ المادية، هو ميل في الواقع نحو مطلق لا تقيده قيود، ولا يكتفى منه، ولا يستغنى عنه، وهو بعدئذ ليس اختراعاً يصوب نحوه سهم الخطأ أو

الصواب، إنما هو الذي يضع - بعد التجرد - اللبنة الأولى في مقام المعرفة، وهو المقام الذي يشير إليه الإمام علي(عليه السلام) عند قوله في معرفة الله تعالى: "أول الدين معرفته"(17).

وعلى أن نقف عند هذه الجملة هنا لأهميتها، فهي تشير بوضوح إلى أن المعرفة بذاتها على درجات، ولسنا هنا بهذا الصدد، وإنما نلتفت إلى أمر آخر، وهو أن الإمام علي(عليه السلام)، عندما قال: "أول الدين"، لم يقصد به فقط الدين الإسلامي الحنيف، وإن كان هذا الأمر مقصوداً بلا شك، لكننا نستفيد هنا من إطلاقه لكلمة الدين أنه يشير إلى ذلك الجانب من ذات الإنسان الذي يبعث له تلك الحاجة، ويسوقه نحو التعلق.

وهذا ما قلناه عن (غريزة التدين عند الإنسان)، وهذه المرتبة الابتدائية التي يحققها المرء بعد التجرد الأولي، ثم تليها المراتب التي يشير إليها(عليه السلام) تتابعياً: "وكمال معرفته التصديق به"(18)، وهي المسيرة التي يقطعها الباحث متدرجاً في إزاحة العوائق والحجب.

وإذا أردنا أن نلاحظ عن كثب الكيفية التي يتناول فيها هذه المراتب، سنجد أنه يوصل مراحل التطور البشري بعضها ببعض الآخر، وقبل أن نقف على هذه الحقائق التي سوف نغرد لها مكاناً من هذا الكتاب، نود أن نجز ما نمهد به نظرياً لذلك. والذي يبتدئ من هنا، هو بلوغ منطق الميل الذي يحفز قلب الإنسان نحو هذه المعارف، ونحن أشرنا إلى أن الإنسان هنا غير مرتهن بعرق أو قومية أو دين، إنما نقصد العنصر البشري الذي يستحكم فيه أمران: أحدهما غريزي، تسير معه آتته الجسدية إلى منتهياتها، والثاني عقلي، ينطلق نحو المعارف والتأملات التي يحدث منها جملة منافع وسواها في مسيرته الحياتية. ولما كان التدين بالمعنى العام، اعتقاداً يستلزم الفكر المجرد مثلما يستلزم التعلق العاطفي الذي يؤدي دوراً من أدوار إشباع الغرائز، كان بذلك متناعماً مع الإنسان، بما تشتمل عليه الضرورات من أمور نظرية، وأخرى تطبيقية عملية، فمن أين تأتي لنا هذه الحاجة إلى التعلق بعد ذلك؟ وكيف تنبعث التعبيرات عنها بهذا الشكل أو ذاك؟ لا بد من التعرف على جذورها أولاً.

منشأ وجذر الميول

في المساحات التي يشغلها البشر فوق الأرض، وفي الأماكن القابلة للحياة منذ القدم، ثمة ما ينضج بالعلاقة الناجزة بيننا وبين مجهول محبب، لا ينفر منه القلب، ولا تخاله المشاعر.

ويرى "وليم جيمس" أنه: "مهما كانت دوافعنا وميولنا نابعة من هذا العالم، فإن أغلب ميولنا وآمالنا تتبع من عالم ما وراء الطبيعة"(19)، أي من مكان آخر غير مرئي لكنه قائم على اتصال ما بهذا العالم، وهذا الاتصال وإن بدا وكأنه مجهول لا يخامر الحواس الخارجية، لكن العلم يعول عليه كثيراً عند الذهاب نحو التحقق من نوازع الإنسان، لكن إذا صح قول "جيمس" كان الذي يترتب عليها بلا شك هو البحث عن الوسيلة التي يستقبل عبرها الإنسان هذه الميول من عوالم أخرى، ليس فقط الميول وإنما الآمال أيضاً.

ويرى "كانت" في تبرير هذا الأمر عند إحالته إلى إدراك الوجود ووعيه، أن ثمة ارتباط ضروري غير طارئ، محايث للوجود زماناً ومكاناً، يقول: "إنني بادراك وجودي، وارتباطي بعوالم تغلونها عوالم، وبتناسق أنساق إلى زمان لا حدود له من ذاتي المنظورة، أرى أنني لست على ارتباط عارض محض، بل على ارتباط كوني ضروري"(20).

ولا شك أيضاً أن هذا الإدراك موصل إلى حقيقة، ولهذه الحقيقة عمق في النفس "الذات البشرية" بين الفينة والأخرى تتصدع الحجب دونها، فتظهر غير عابئة بالطريق، ويلهج بها اللسان، أو يعبر عنها القلم، ولهذا الارتباط الكوني امتداد كما لهذا

الامتداد رموز وإشارات، تعوز الإنسان كي يلتقطها من ناحية الكيفية والحالة، بحيث يصبح بمستطاعه التعرف على الطرائق التي يتلقى عبرها ذلك الشعور بالميل والدافع من منبعه الأصلي.

ودعونا قبل أن نتحرف الفكرة عن محبتها، أن نؤكد أنّ الميل الذي تعنى به هذه الأسطر، هو ذلك البعد من الفطرة، والتي تشير إليها كلمات الإمام علي(عليه السلام) عند مواصلة إفصاحه عن طبيعة الكون والخلق، ولعلنا نجد في كلماته هنا المنهل الأكثر غنوة في دراسة الأحوال النفسية التي تتراكم فوقها الحاجات فتحيد بالمرء عن بلوغ قصاره، ونقرأ هنا هذا الشاهد.

يقول(عليه السلام): "واصطفى سبحانه من ولده - أي آدم - أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم (لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم)(21)"(22)، ونضع بين قوسين كلمات تفيد الإنسان الذي يتحدث (كائن) عن ارتباطه الكوني الضروري، وهو إنسان تلهج ذاته نحو عوالم تداخل معها، ولا يجد له من محيص عن الإقرار بها.

لكن الواقع أن تسمية هذا الأمر هي محل العناية، فبأي طرائق المعرفة يصل إدراك وجوده، لعله بطريق الاستماع إلى الإيقاع الكوني الذي يهدد داخله ولا يفصح له عن لغة يصور بها الحالة التي هو عليها، لكن الكلام الآتي للإمام علي(عليه السلام) يمكننا من التقاط خيط هذه المعرفة.

يقول(عليه السلام): "فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه (ليستأدوهم ميثاق فطرته)، ويذكروهم منسي نعمته"(23)، إن ما بين القوسين هنا يشير إلى أن الأنموذج البشري جميعاً وهو الذي يمتلك خاصيات مشتركة تؤهله لأن يبلغ مراتب المعرفة، ويزيح عن ذاته براقع النسيان، ومن المعروف في علم النفس أنّ ثمة مصطلح يستخدم للتدليل على أنّ الناس يتوارثون الذكريات، إضافة إلى عناصر الميراث الأخرى فيما يطلق عليه اسم (الذاكرة السلالية)، وعند الرجوع إلى مراحل نمو البشر الحضارية، فإن الآثار تشير إلى أن التدين من الأمور الثابتة في حياة الأمم، ولا نقصد هنا التدين أي الالتزام بنسق ديني واحد، لا حياد عنه وإنما المعروف أن للشعوب عقائد وعبادات وطرائق في التعبير عن ميولها الدينية لم تفارقها منذ أوائل ظهور الحياة.

وقد سبق وأشرنا إلى مقولة الإمام علي(عليه السلام) في أولية الدين، وهو يشير إلى كل أولية دينية، أي معرفة الله، وقلنا: أن هذا الكلام ينسحب على أي دين أو عقيدة، ترتكز في فكرتها على "الله"، وهذا متوفر في الأثر البشري، مثلما يدل عليه كلامه(عليه السلام).

ويدل عليه بالدرجة الأولى قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)(24) والذي يفهم منها أن العهد الأوّل للإنسان، هو عهد الفطرة التي لا اختلاف بين البشر حولها، ومع تقادم الأزمنة وتباعد الأيام، اختلف الناس تدريجياً إلى أن بلغوا من الاختلاف مبلغاً احتاجوا معه إلى تدخل العون الإلهي فزود الله رسله بالكتاب الذي يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، لكن الاختلاف بعد قيامه، أصبح يلبس لباس الاستمرار، وصار الإنسان أو قسم من بني الإنسان إلى النسيان، وإلى ما يحجب بينه وبين ميثاقه، بينه وبين فطرة الله التي فطر عليها. وقسم آخر استجاب لداعي الرحمة، فمنّ الله عليه بالثبات على عهده بحسب ما تفيد متابعة الآية الشريفة، وما يواصله الإمام علي(عليه السلام) من كشف حولها حين يقول الإمام علي(عليه السلام): "لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله"(25)، وفي الجمع والتأمل، بين قوله تعالى في الآية الأنفة وبين ما جاء به الإمام علي(عليه السلام) حول التفصيل في ذات الغرض، ونلاحظ استمرار الإرث البشري الذاكراتي وتقلبه بين الشعوب، إلى أن يصل عند علماء النفس والفلاسفة إلى القول بالارتباط الضروري الكوني، وبأنّ الميول لها منابع فوق الطبيعة، وأن الإنسان مجهز سلفاً بقرائن

ودوافع مختزنة في ذاته منذ المرحلة الجنينية، نصل إلى أن الجنس البشري يشترك بعناصر من الحنين تتشابه فيما بينها، وهذا الحنين إلى شي ما يظهر بين الحين والآخر ويربط ما بين الأجيال.

ويمكن التقاط بعض مميزات في الإبداع أكثر من المجالات الأخرى، كالفن والشعر مثلاً وأصناف أخرى من الأدب، وهنا نجد كلاماً لـ "اليوت" الشاعر والناقد الأميركي، يقول: "لا شاعر ولا فنان يملك معناه الكامل لوحده... أن الذي يجري عند إبداع عمل فني جديد، هو شي ما يحدث بشكل متزامن لكل أعمال الفن التي سبقتة" (26).

ويرى أن وترأ ما يربط وبشكل مستمر لا ينقطع بين جميع ما ينتج عن إبداع، وهو لا يخضع هذا القول لعنصر الزمان، بمعنى أنه لا يقصد تاريخاً معيناً، بل يجري هذا القول على جميع النتائج الإبداعية البشرية، عند الكل وليس عند فئة من الناس، وهذا مفاده أن التجربة الإنسانية جمعاء تشترك في صياغة الإبداع، ويتشكل دافعاً ذلك المعنى الذي لا يكتمل أبداً، فالإضافة الإبداعية تعطي جديداً، لكنها لا تختتم الإبداع، وهذا فيه الكثير من الصواب في رأينا، فالتراث البشري يمثل شراكة إنسانية، ويتنوع فيه العطاء، لكنه في المحصلة هو المشكل للذاكرة، وهنا مكن أهميته، ليعود تدريجياً إلى بدايات الناس، ثم يعود إلى العلاقة التي يشترك فيها العمق البشري النفسي بالإبداع، فالكل يربط بين النفس والشعر مثلاً، ليقولوا في النهاية: إن المساحة التي يتحرك فيها الشعر هي مساحة فوق المؤلف (27)، وهي ذلك المجال النفسي الذي لا يخضع في جوهره لقوانين الزمان والمكان، إلا بالمقدار الذي تحكمه فيه آليات الجسد، وهو بخلاف ذلك قد يحار المرء في المنشأ أو المكان الذي يصدر عنه، ولهذا الكلام مكان في آراء الشعراء والبلاغيين والنقاد العرب منذ القديم حتى العصر الراهن، ونظن أنه إلى المستقبل يمتد أيضاً، وربما دلّ مؤسس المذهب (السوريالي) في سورية على ذلك عند قوله: "إن العقل الباطن يحاول دائماً أن يوجد تلاوفاً بين جميع العناصر التي تعيش مجتمعة فيه، وتنفرد إحدى هذه المحاولات بتمثيل حالة إنسانية عامة، تنبثق من الفرد وكأنه كل ما مرّ وكل ما سيأتي من أجيال" (28).

فإذا كان الإبداع يجسد هذه الحركة المترامية الأطراف بين أزمنة الناس، وهي تملك هذه القدرة على تمثيل هذه الحالة، فإن أكثر ما يقربها من الحقيقة انتماؤها إلى ما يمكن أن نطلق عليه البعد الفطري في الإنسان.

قوة الفطرة في معرفة الإمام

إنّ هذه القوة الموجودة في الأعماق والتي يشترك فيها أفراد هذا الجنس، هي قوة ذات بعد فطري، ولعل هذا البعد هو الذي يعول عليه عندما يشند البحث عن الهدف الذي تبحث عنه أو تنزع نحوه الميول والحاجات الدفينة في أعماق الناس. وآننا سوف نثير هنا في نفسية القارئ الكريم رغبة أو شهوة معرفة ما تؤول إليه حقيقته، أياً كان الدين الذي يعتنقه، أو المذهب أو التيار، لأن الواقع الذي تجري وراءه هذه الفكرة، هو مجال الإنسانية وليس مجال الفئوية أو الفردية. ونحن سوف نعتمد على هذه القوة في السؤال عن (ما هو الإمام).

وبداية نقول أن هذه القوة مزودة بالقدرة على المعرفة التي تجتاز ظواهر الأشياء والنفوذ إلى ماهيتها، فيما لو تشكلت غير آبهة بالشوائب، وبمعنى آخر: فيما لو أمكن إزاحة ما يعلق فيها من تراكمات تسدل عليها طبقات من الحجب، بحيث يصعب معها تحديد الغاية الحقيقية التي تهفو إليها.

وهذا البعد في الجوهر يساوي العقل الذي يصل من خلال الخبرات إلى تلك المقدره على الحكم، والفصل بين ما هو نافع وما هو ضار في الحقيقة، فيوسع العقل وحده في بعض الأحيان أن يتخطى حدود التجربة، فينفذ إلى جواهر الأشياء ويقف عليها كما هي موجودة في الحقيقة بصورة مستقلة عنا، فإن مهمة العقل الوصول بالمعرفة إلى الوحدة المطلقة النهائية (29).

لكن ليس العقل هو ميزة الإنسان! ليس جميع الأسوياء يمتلكون هذه القوة! إذن فما هو الفارق بين الناس في بلوغ هذه المعرفة، وفيما يختلف الكل، كل من وجهته؟

وإذا كان عند "هيجل" يقف العقل على الوحدة الداخلية العميقة للجوانب المتضادة، ويتيح بذلك إمكانية معرفة الموضوعات في عيائيتها وجليتها(30). فما هي الموانع من بلوغ الهدف؟

لم تحن الإجابة عن هذا السؤال بعد، لكن نود أن نشير إلى أن الخطاب الإلهي في كل الأحوال، يتجه نحو الجوهر الإنساني السليم، أو الأكثر سلامة، ذاك الذي يعي ويدرك ويمتلك خاصة سبر ومعرفة أغوار الأشياء، ويمكن أن نجمله هنا بمصطلح (النفس) الذي يرسل إليها الخطاب القرآني، ومجمل أنواع المخاطبات الإنسانية، أي تلك القوة العاقلة التي تتمتع بالفهم والفكر والمشاعر، وهذه القوة لا مجال لمعرفتها أو التعرف عليها عبر الأدوات التي تختبر بها القوانين والأنظمة، كالكيمياء والطاقة والتشريح وما إلى ذلك، لا لأنها ليست حقيقة ملموسة، بل على العكس يمكن أن تكون هي الحقيقة الأشد نصاعة بين جملة أشياء هذا الكون، لقدرتها على التأمل والخلق وترتيب المقدمات التي توصل إلى نتائج.

يقول عالم الأحياء "أدولوف بورتمان": "ما من كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي، يمكنها أن تقدم لنا صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية"(31).

ومن خلال ما تقدم تبين لنا، أن هذا الجوهر الإنساني لا يخضع في حركته الفكرية لأية سلطة، أو لا توجد هناك من سلطة تمنعه من البحث الدائم، الذي لا ينفك محاولاً الإحاطة بكل تفاصيل الوجود، عاملاً على إخضاعها لمتطلباته، أو باحثاً عن فك رموزها.

هذا ما يؤكد عمل الإنسان المبكر على إنشاء علائق تقوم ما بينه وبين الموجودات الشاخصة أمامه، بل تحرك الإنسان أعمق من ذلك وذهب نحو الماهيات وجرّد الأشياء من الأطراف الزوائد التي تلحق بها ليصل إلى اللب، أو ليبحت عن الخالد، ولا يعبأ كثيراً بالآيل إلى الزوال.

والذي يدفع الإنسان نحو هذا المنهج، هو شغف أزلي يسوقه نحو معرفة بدايته ونهايته، ويجري أعماله على خلق ظروف ومناخات تلائم المراحل التي يقطعها ما بين هذه البداية التي يحيها، وتلك النهاية التي ينحصر ختام تجربته فوق التراب بها، بجميع ما يشوبها من الغموض، وما ينتظره فيها من المجهول.

وبمناسبة هذا المجهول، فإننا نعطف هنا على أن التعلق والحنين والبحث عن المجهول بالنسبة للنوع الإنساني، هو أمر له علاقة ذات حدّين:

الحدّ الأوّل: هو الذي يخضع للتساؤلات عن المنشأ والولادة والبداية.

الحدّ الثاني: هو الذي تجري عليه جميع اختبارات عمره في طريق بلوغه النهاية التي حتمت عليه، وهو يعرفها لكنّه يغض الطرف عنها.

والوازع والهاتف الداخلي الذي يحفز الإنسان على المعرفة يرتبط بشكل وثيق بالحدّ الثاني، حدّ معرفة مجهول النهاية، وذلك لما يتعلق به في مسيرته الحياتية من آمال تجعله لا يرغب بانقضائها، مع علمه يقيناً بهذا الانقضاء، ولهذا أوصى أمير المؤمنين(عليه السلام) برفض هذه الدنيا، قانلاً: "وإن لم تحبوا تركها، والمبلىة لأجسامكم، وإن كنتم تحبون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كسفر سلخوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه، وأموا علماً فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها"(32).



- 1 - الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: 234، وعنه السبحاني في الملل والنحل 1: 295، والواقع أن الكلام حول هذا الأمر كثير في التراث. ويمكن الرجوع إلى آراء المتكلمين المسلمين للتوسع في مفهومهم للإمامة فهناك عدد كبير منهم لم يخرج عن رأي الغزالي كثيراً.
- 2 - انظر غاية المرام في علم الكلام للأمدي: 363.
- 3- انظر: الكافي للكليني 1: 202، كتاب الحجّة.
- 4 - محيط المحيط، مكتبة لبنان، ص704.
- 5- المعجم الفلسفي المختصر: توفيق سلوم، ط موسكو ص470.
- 6 - انظر كتاب الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، محمود الخالدي، دار الفكر، عمان ط1، 1: 30، وما بعدها.
- 7- الفصل بين الملل والنحل لابن حزم 4: 87.
- 8 - انظر: الكافي للكليني 1: 202، كتاب الحجّة.
- 9 - الصحاح للجوهري: 5، مادة إمام.
- 10 لسان العرب لابن منظور مادة: أم.
- 11 محيط المحيط، بطرس البستاني، دار لبنان، ط 1977، ص161.
- 12- المفردات لألفاظ القرآن الكريم للراغب الاصفهاني: 24.
- 13- البحث النفسي والدين، أريك فروم: ضمن الإنسان والإيمان، مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الإسلامي ط2، ص43.
- 14- انظر: علي والفلسفة الإلهية، السيد محمد حسين الطباطبائي: 39، وما يليها.
- 15- المصدر نفسه مع بعض التصرف.
- 16- انظر: سر الصلاة أو صلاة العارفين، الإمام الخميني، تعريب أحمد الفهري مؤسسة الإعلام الإسلامي، المقدمة.
- 17- أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 1.
- 18- المصدر نفسه.
- 19- الدين والنفس، ضمن الإنسان والإيمان، مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الإسلامي، ط2، ص43.
- 20- نقد العقل العملي، عمانويل كانت، أحمد شيباني، دار اليقظة العربية - بيروت 966، ص62.
- 21- اخذ عليهم الميثاق أن يبلغوا ما اوحى اليهم، ويكون ما بعده بمنزلة التأكيد له وأخذ عليهم أن لا يشرعوا للناس إلا ما يوحى إليهم وهو المقصود. بميثاق الفطرة.
- 22- انظر: نهج البلاغة: الخطبة 1.
- 23- المصدر نفسه.
- 24- البقرة: 213.
- 25- انظر نهج البلاغة: الخطبة 1.
- 26 مقالات منتخبة، ت، س اليوت. ط لندن ص289 (النسخة الإنجليزية).
- 27 للتوسع في هذا المجال، يرجى الرجوع إلى كتابنا، جدلية النفس والشعر عند العرب، ط دار يعقوب دمشق 2000، عدة أماكن، وبالخصوص ينظر بحث تحت عنوان في النفس (الروح) والشعر.

- 28- مقدمة سوربيل، أورخان ميسر، ضمن نظرية الشعر، محمد كامل الخطيب ط1، وزارة الثقافة 1997، مرحلة شعر ق 2 ص701.
- 29 المعجم الفلسفي، م. س. ص. 92.
- 30- نفس المصدر: 92.
- 31- العلم من منظوره الجديد، روبرت اغروس، جورج ستانسيو، ت: كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 134، ص42 - 43.
- 32- انظر: نهج البلاغة: الخطبة 98.

نتيجة

الواقع أنّ ثمة اتصال يربط ما بين هذه الحياة الخارجية، وبين حياة أخرى يُسعى لا محالة لبلوغها، وهي حياة أزلية محكوم بها الإنسان، ومحتاج للتعرف عليها واكتشافها، لكنّه يعترف دائماً أنه بمفرده لا يتمكن - مع ما يمتلكه من شعور عميق - من الوصول إليها، وكذلك يندفع به هذا الشعور نحوها، غير أن هذا الشعور يتدخل في تحديد مدى صفاته وخلوصه من الشوائب. لكن الفرد قد يتمكن من الوصول إلى المواعمة بين ما يتلقاه من العالم الخارجي، وبين ما يتدفق من أعماقه، وهو هنا عند هذه المرحلة من التمكن سوف يستطيع يقيناً أن يلتقط إشارات دقيقة التأثير، تصل به إلى معرفة مرضية بالمعنى الحقيقي لوجوده والغاية من هذا الوجود، وبذات المنطقة من المعرفة هذه سوف يجذب باتجاه ملاذه الذي يدرك بالفطرة المصفاة أنه هو القادر على حمايته من أي سقوط، مثلما يحميه من مغبة الغفلة عن هذا الذي بلغه من المعرفة، وهذا الانجذاب مسرّب بعناية إلهية، وهي في هذه الهنيهة بالذات معنية بهديته، وإنما تكون هذه الهداية في النتيجة هي انكشافه على إمامه الذي يحمي كليته في هذه الحياة.

هذا ما يمكن أن نسميه الوصول الفطري إلى معرفة الإمام! وهناك منحى آخر يمكن تناوله هنا، ونحن نؤسس للتعرف على الإمام في الماهية والمفهوم بمعناه الإنساني الكلي، أي فوق الفنوي أو القومي والعربي، وسنجد بعدنذ بحول الله الموقع الذي يشغله علي بن أبي طالب (عليه السلام) من هذه الدنيا برمتها، والمنحى الآخر هو:

تلقي معرفة الإمام

بعد أن تجولنا في أرجاء المعرفة النابعة من الفطرة المتجسمة بالعقل من الجواهر، يمكن أن نقترح طريقة ثانية، وهي جزء متوازن في الشخصية وموازي لذاك الجزء المتمثل بالطريق الذي يستسلم من خلاله المرء إلى جملة التراكمات التي تشكلت مع تقادم الزمن عن طريق الوعي الجماعي أو الفردي بخبرات متلاحقة متتابعة، وقد تبلغ قيمة هذه التراكمات الاعتبارية أن تصبح جملة من النظم والقوانين والمفاهيم، وربما العادات التي تصير في معظم الأحيان إلى المكان المقدس الذي يصعب على النفس تنقية أطرافها منها، لصعوبة اختراقها بعد وصولها إلى هذه المرتبة من القداسة. لهذا نجد أنّ القرآن الكريم لا يلمح بإشارات عابرة إلى مثل هذه الظاهرة، وإنما يتحدث عن معتقدات اختلقها الناس اختلاقاً ما أنزل الله بها من سلطان، ثم راحت الأجيال تتوارثها كابراً عن كابر، سواء كانت من ذلك الذي يتوافق مع أهوانهم أم تلك التي تخالفها.

وفي نظر الإسلام بملاحظة الموقف القرآني من هذا المشهد، فإنه يشكل أكبر العوائق التي تقطع الطريق على الصفاء الذي يقود نحو منازل رفيعة يطلبها، بل يريجوها الأنبياء للناس، ومثالاً لنا على ذلك: قوله تعالى (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (1)، وهو على لسان أولئك الذين صنع لهم آباؤهم من خلال مواعماتهم مع متطلبات ورغائب تلزمهم في سير أو منحى معين، صنعوا لهم قيماً وأنظمة بلغت مراتب اعتقدوا أنها هي الدين الذي لا ينبغي الحيد عنه، أو الافتراق منه، فلم يمكنهم هذا الإدراك من تجاوزها أو صياغة تحويل آخر لها يساعدهم على السير باتجاه مناطق أخرى من الفكر، تخولهم الاستجابة لما هو أكثر موضوعية وعلمية منه.

ويجدد بي هنا أن أورد هذا المقتبس الذي يشير بوضوح إلى أنّ هذه الآية ومجمل الخطاب القرآني إلى بشر لم يستمعوا يقيناً إلى داعي الرحمة الإلهية، واستأثروا بتراث آباءهم وأجدادهم، دون عناء الفحص عن علم والتدقيق عن معرفة، يلفتون النظر

إلى أنه ليس كل ما يكسبه المرء من تعاليم هي بالضرورة مقدسة، خاصة تلك التي تصبح مع التقادم نظاماً، أو قانوناً، أو قيمة من القيم الاجتماعية.

والمقتبس من خطبة لأحد زعماء الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وهو يعبر بشدة ووضوح عن فقدان العدد الأوفر من الهنود الحمر، نتيجة لاعتقادهم بأشياء يصعب الثبات عليها، عندما تقتضي الضرورة الحفاظ على الإنسان، حتى وإن كانت تلك الأشياء مقدسة لا يجب المساس بها، نستمع هنا إلى كلمات زعيم "دواميش chief seattie" والتي قالها أمام ممثل الحكومة الأمريكية سنة 1858.

"يخبرنا الزعيم الأبيض أن (الزعيم الكبير)(2) في واشنطن يهدينا تحيات الصداقة والمشاعر الطيبة، وذلك لطف منه، فنحن من جهتنا أدرى بأن حاجته إلى صداقتنا ليست ماسة، شعبه وافر العدد، وأشبه بالعشب الذي يكسو البراري، أما شعبي فقليل عديده، أشبه بشجيرات مبعثرة في برية تنتهبها العاصفة.

لن أسهب في الحديث عن اندثارنا قبل الآوان، ولن اندب، أخوتنا شاحبي الوجوه(3) بتعجيلهم في حدوثه، فالملامة تطاولنا جميعاً (أرجو من القارئ الكريم الانتباه هنا!) ربكم ليس ربنا، ربكم يؤثر قومه ويبغض قومي، إنّه يلف الوجه الشاحب بذراعيه الصلبتين الحاميتين، ويحنو عليه ويأخذه بيده كما يقود الوالد ولده الغر، لكنه نبذ أبناءه الحمر، إذا كانوا أبناءه حقاً، كذلك يلوح، أن ربنا (الروح الأكبر) قد نبذنا بدوره.

ربكم يشد في أزر قومه كل يوم، ولن يطول الأمد حتى تحفل بهم الأرض، قومنا ينحسرون مثل مدّ سريع النكوص، بلا إياب، ورب الرجل الأبيض غير قادر على محبة قومنا، ولا بسط حمايته عليهم، أنهم أشبه بأيتام لن يعثروا على معين لهم أينما ولوا وجوههم، فكيف لنا أن نتأخا والحال هذه؟

نحن جنسان مختلفان افرقت أصولهما، وتخالفت أقدارهما... دينكم كتبته أصابع ربكم الحديدية على ألواح من حجر، خشية أن يغلبكم النسيان، هذه حكاية لا يفهمها الرجل الأحمر، ولا يتذكرها، ديننا هو أعراف أسلافنا، أحلام شيوخنا التي حباهم بها (الروح الأكبر) في سويغات مباركة من الليل، وروى زعماننا المنقوشة جميعها على قلوب أبناء شعبنا... لكن ما لي أحزن على قدر قومي؟ قبيلة تتبع قبيلة، وأمة تقتفي أثر أمة، مثل أمواج البحر، إنّه نظام الكون ولا فائدة ترجى من الحسرة"(4).

وفي كلام آخر لزعيم آخر هو "الصقر الأسود" زعيم قبائل "سوك وفوكس" نجد الآتي:

"تطائر الرصاص من حولنا مثل طيور في الفضاء، وكان الأزيز يخترق آذاننا... خرّ المحاربون صرعى من حولي، وأدركت أن ساعة الشوم آتية... شخصنا بأبصارنا إلى (الروح الأكبر) وقصدنا أبانا الكبير فتزودنا بالشجاعة... دعونا إلى مجلس كبير وأوقدنا ناراً عظيمة، نهضت أرواح أسلافنا فتحدثت إلينا وطالبتنا بالثأر لمظالمنا أو الفناء"(5).

وفي أماكن متفرقة من النصوص، نلاحظ أنّ المعتقدات التي لم يتمكن أصحابها من التخلص من بعض الأخطاء التي سادت فيها، قد قادت أصحابها إلى الهلاك، فطريقة القتال الهندية طريقة مقدسة ويصعب تبديلها، بحيث كان بإمكانه في البداية من شراء الرصاص، لكن بقي الرمح والخنجر أو السكين هو سلاحه، بينما الأبيض بحسب تعبيراتهم، يمنحه ربه الحق في اقتناء آلات حرب مهولة!

كذلك لا يحق له أن يحفر الأرض! لأنها أمه، بحسب ما يرد في النصوص، يقول "ووفوكا": تريدونني أن أفلح الأرض، هل أمتشق خنجري وأفرق صدر أمي!! فإذا مت فهل ستضمني إلى صدرها كي أستريح، تريدونني أن أحفر بحثاً عن الحجارة، هل أحفر تحت جلدها بحثاً عن عظامها؟! فإذا مت فهل أستطيع دخول جسدها كي أولد من جديد، تريدونني أن أحصد العشب

وأصنع القش وأبيعه لأصبح ثرياً مثل الرجل الأبيض، فهل أجروا إلى قص شعر أُمي... الأموات سيبعثون من جديد... ينبغي أن ننتظر هنا في بيوت آبائنا، استعداداً للقائهم من صدر أمانا"(6).

قمنا بنقل بعض هذه الأفكار والمقبوسات بغية إيضاح أمر في غاية الأهمية، وهو أنّ القصاد والنظم وبعض العادات الاجتماعية التي إن دخلت مقام التقديس، فإنّ صعوبة محاكمتها لا تكمن في المساس بهذا المقدس وحسب، لكن في أنّ معتقها قد يصلوا إلى حيزّ الفناء دفاعاً عنها، وهذا ما لا يريده القرآن في الواقع.

ومن هنا نجد أنّ القول إنّها ما هي (إلا أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم)(7)، يدعو إلى الانتباه أنّ قدسيّتها لم تأت من الله، وإنما أنت من تراكم عادات، فهي بذلك ضارة، والنفع كل النفع بالالتفات إلى داعي الله.

في عدد من المواضيع التي تقرأ من هذه النصوص، يشعر القارئ بالأسى نتيجة الظلم الذي يقع على الهندي الأحمر، ويشعر بمدى احتقار الذين يغزون بلاده له، ولكن الأمر الأشد إيلاماً، هو أنهم من الزعيم وحتى أصغر المحاربين، يخسرون المعارك بأشكال متتالية، ويفنون بأشكال متتالية، كما عبر أحدهم مثل موج البحر، لكنهم يلتصقون بعدم التخلي عن ذاك الذي شكل مقدساً، ولا نقصد أي معنى هنا مخالف لروح الأديان، إنما لا نعتقد أنّ الله سبحانه يتخلّى عن مخلوقاته، مثلما قرأنا في ورقة زعيم "دواميش"، وإنما الذي يجري هو التقيد بنظام الحرب وفق المنهج الذي رسمه الشيوخ القدماء، وهو بلغ كذلك رتبة التقديس، فاستغل الأبيض بقاء هذا الإيمان وراح يفني القبائل.

إذاً لقد شكلت هذه الظواهر عائقاً كبيراً في طريق الصفاء الذي يفقد نحو منازل رفيعة، يتخلصون مع الالتفات إليها مما هو ضار بالضرورة وينجون - أي جميع الناس - وليس فقط هذا القوم أو ذاك - من الذي أشار إليه القرآن الكريم في مقام توارث العقائد بدون هدى حين قوله: (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)(8)، بل هي شاملة للعنصر الإنساني جميعاً.

وإذا دلّ تمسك المجتمع بما لا تحمد عواقبه، فإنّما يدل على صلابة الجدار الذي شيد فيما بين الثبات على نمط أخذ شكل التقديس، وبات معه التغيير أمر في غاية التعقيد والصعوبة، وما بين تطلع الذات وطموحها الذي تصعب الإحاطة النهائية به، ويصعب حصره.

وهذا الجدار من الصلابة بحيث يستمر مع الأجيال تتوارثه وتقدهه، وكلما أوغل في القدم كلما ازدادت قسوته وقوته، وازدادت صعوبة اختراقه، ويقول القرآن الكريم على لسان أنصار هذا الجدار: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)(9).

ونعتقد بصدد عدم الخروج عما يورثه الآباء للأبناء، وبالخصوص في مسألة العقائد والقيم التي تعتقها الفئات والمجتمعات أحياناً، أنّها تبلغ مع التقادم من الرسوخ ما يجعل صاحبها غاضباً بصره عن أي مناقشة تؤثر في بنيتها، خصوصاً إذا كان ثمة سؤال يحفر في أعماقها، ويصل مع هذا الغضب إلى الانغلاق أمام أية مكاشفة محتملة، بل ويشكل حاجزاً دفاعياً غير قابل للتسامح أو الأخذ والرد، لماذا..؟ لأنّ هذا الكائن البشري ما عاد يصغي إلى ندائه الداخلي، وبالتالي فقد أراح نفسه من مشقة البحث وعناء التطلع إلى ما يمكن أن ينشئ جسراً أكثر حيوية وواقعية، بين واقعه وبين ما تصبوا إليه نفسه بفطرتها.

وقد انهمك في الأشياء التي توفر له مساحة العيش غير القلق بحسب ما يظن، بيد أنّ الله سبحانه لا يتجاوز عن إنسان غير آبه بما سيؤول إليه حاله نتيجة عدم بلوغه هذا الاطمئنان عن طريق أعمال جميع ملكاته الواعية، وعدم الاكتفاء بما ورثه عن آبائه أو غيرهم، مهما كان حظ هذا الميراث من الصحة كبيراً، لأنّ مصيره لا يرتهن بمن سلف، إنما هو مضطر لأن يذهب في تأمله، باحثاً عن حقيقة انغمست في أعماقه، مستجيباً لندائها دائم التنبيه، وانه بغير هذه الاستجابة وبسوى هذا الطريق سوف ينطبق عليه فيما نرى قوله تعالى: (لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين)(10).

هذا الجانب الذي ركب جراء جملة العناصر التي من أهمها: الرغبة في الإجابة على الأسئلة القلبية، والتي غالباً ما تجد لها نصيراً في الحياة العامة التي يعيشها الناس، وبالخصوص عندما يدرك الموت أحد الأشخاص، فيقف الآخرون وقد أطبق عليهم العجز من تفسير هذا المشهد!، ومنها الاستنثار والتمسك بالموروث كأحد أهم الإجابات على هذه الأسئلة، بالطبع إن هذه المواصفات، والموروثات تجد لها سدنة يحمونها من الزوال ويعملون على ترسيخها في عقول الأجيال.

وقد التفت إلى هذه الظاهرة العلماء، وعلماء الاجتماع بالخصوص، ويمكن أن ننظر إلى عالم اجتماع عربي بكر في تشخيص مثل هذا الأمر.

يقول الرحالة وعالم الاجتماع "ابن بطوطة" (11): "إن المجتمع مسرح لطانفتين من الظواهر:

الطائفة الأولى: هي الظواهر الطبيعية، والمجتمع بصدده هذه الظواهر لا يخلقها ولا ينشئها، ولكن يجدها مستقلة بطبيعتها. والطائفة الثانية: هي الظواهر الاجتماعية، والمجتمع بصدده هذه الظواهر يخلقها خلقاً وينشئها انشاءً، وهي لا توجد منفصلة، بل تكون متماسكة الأجزاء، ووحدة حية تتفاعل عناصرها، وتشترك آثارها، فينتج عن ذلك ما نسميه بالدوافع والتيارات الاجتماعية" (12).

وإذا دار البحث حول الإنسان والمجتمع، فذلك لقراءة البناء النفسي الذي يربط المرء بالعالم، ويربطه بذاته أيضاً، هذه الذات التي تشغل مساحة وجوده وهي التي تتمكن من معرفة الخيط الذي يوصلها بغاياتها، مثلما نعول عليها في فك رمز هذا البحث الداخلي السائر لا محالة بدافع الفطرة نحو شأن كوني تعرفه الفطرة وتهتدي إليه، وهذا ما يشكل هدفاً حقيقياً لا دخل للأنظمة الاجتماعية بها إلا من قبيل فرض بعض القوانين والقيم التي تغلفها، الأمر الذي يجعله خاضعاً في الغالب - ما لم يتخلص بكفاءته - لهذه المفاهيم التي تعيق قدرته على بلوغ صفاءه، لكن هذا بدوره يحتاج من الفرد بذل مجهود مضاعف عندما يذهب نحو فطرته الأولى، المقام الرفيع الذي يخوله الانكشاف إلى حقيقة الإمام.

إن هذا جانب مركب في طبائع الناس، يجعلنا نعتقد أنه من مكامن الحجاب الحقيقي الذي يحول دون بلوغ درجة من الشفافية يُلامس معها الكنه، ويُتعرّف عليه وهو هنا عند هذه المنطقة يجذب نحو ملاذه، ويلجأ إلى إمامه عياناً.

الخلاصة

نخلص من هذا البحث إلى النتائج التالية:

- إن النفس الإنسانية بما هي ذات متسعة الأبعاد عميقة المعنى، يدور حولها محور هو الأهم في الرسالات السماوية، وقد بنيت مختلف التأملات والأفكار على أسس تبحث في معرفتها، ومن هذه المعرفة ينطلق الإنسان إلى معارف أخرى غيرها، وإن عدم معرفتها يلزم منه بالضرورة الجهل في سواها، يقول: "صدر الدين الشيرازي": "إن النفس مجمع الموجودات، فمن عرفها، فقد عرف الموجودات كلها" (13).

فمنها إذن يتم الانطلاق إلى معرفة العالم الذي يقودها نحو العالم الروحاني الذي فيه تجد ضالتها، وعلى أعتابه تنكشف لها حقائق ميولاتها الأزلية منها والآنية، وهناك يعرف تعلقها.

وعند هذه النقطة سوف لن يحتاج المرء إلى كثير مشقة، حتى يتعرف على ما هو ومن هو الإمام، منبثقاً من هذه المعارف، من داخلها، حتى يتمكن بعد ذلك من المصداق الخارجي للإمام، والذي يتجسد عياناً في أشخاص قد اصطفاهم الله تعالى، لما في نواتهم من ملكات اهلتهم لهذا الاصطفاء، ويكون الإمام في هذه الحالة، هو ملاذ النفس ومركز طمأنينتها ملتحمًا مع كينونتها، معبراً عن حاجة الفطرة السليمة إليه، متجسداً ومتحققاً عياناً بمصداق إنساني موجود على الأرض.

فهو كامل، لأن الإنسان الذي بلغت نفسه هذا الصفاء، أحس بتعلقها بالجلال والجمال اللذين لا يخامرهما النقص.

ولما كانت الغاية الواقعية هي التعلق بالكامل، أبت النفس أن تميل نحو تعلق بالنواقص، وباعتبار إن معرفتها من ضرورات المعارف الحقّة التي تقود إلى المعرفة الكلية، كان على المرء حتى يبلغ مكن اللوذ بالإمام أن يكشف عنها حجبها، ويعينها على الخلاص من العوالم والتوجه نحو النواقص، فهي حينئذ سوف تتجذب تلقائياً إلى إمامها الذي لا يدخلها في باطل، ولا يخرجها من حق.

ومن أجل تعيين هذه النتيجة نقول:

إن الإمام بهذا اللحاظ، سوف يكون الملجأ الإنساني، ويكون ملاذ البشرية جمعاء، لا ينحصر في فئة ولا في قوم من الناس، ولا يقتصر وجوده على مكان، ولا ينبغي أن تخلو الأرض منه ليوم واحد لا في القديم ولا في الحاضر ولا في المستقبل، وبالتالي فهو مركز الهداية إلى الله سبحانه، وبمثل هذا التعيين تظهر لنا دلالة قوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)(14).

بعد هذه النتائج التي بلغنا إليها، نلتفت إلى أن الإمام الذي اتضحت بالنسبة لنا ماهيته هو بالضرورة مصطفى من قبل الله تعالى، مجعولاً في الناس أبداً، وهو غير القادة والحكام، وإن كانت من ضمن ملكاته هذه الوظائف العادية، وليس هو بالحاكم العسكري، ولا رئيس الدولة، وليس صاحب شأن دنيوي من هذا النوع أو ذاك، لكن جميع هذه الشؤون من ضمن ما يمتلكه، لتمتعه بالكمال في كل شأن، ولعدم عجزه أو تكوصه عن القيام بكامل الأدوار البشرية، ونذكر هنا أن السيد المسيح(عليه السلام) حين قال: "مملكتي ليست من هذا العالم"(15) كان يقصد أنه مكلف بالإمامة من الله عزّ وجلّ.

ونشير هنا إلى أن معرفته عياناً تنطلق من معرفة النفس التي تفيد معرفة الحقائق المتعينة في الأحوال، لذلك جعل رسول الله(صلى الله عليه وآله) معرفة الله مرتبطة بمعرفة النفس، فإذا كانت معرفة الله أشد وأكثر أنواع المعارف احتياجاً للصفاء وعدم الاختلاط والتداخل بينها وبين هذه المعرفة، أي عدم قطع طرقاتها بما يشوب مسيرتها، فإن معرفة الإمام من نفس الجانب ومن ذات المتجه الذي يسار به نحو معرفة الله.

يقول النبي(صلى الله عليه وآله) "من عرف نفسه، فقد عرف ربه"(16)، وسأل رجل النبي(صلى الله عليه وآله) قال: يا رسول الله: كيف الطريق إلى الحق، فقال: "معرفة النفس"(17) وفي كلام لعلي(عليه السلام): "معرفة النفس أنفع المعارف"(18)، وللباقر(عليه السلام): "لا معرفة كمعرفتك بنفسك"(19).

ونجمل جميع هذه الأقوال تحت قوله(عليه السلام): "ومن عرف نفسه، فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم"(20)، ولن نحتاج إلى توضيح بعد هذا، فإن الغاية من وراء كل معرفة ومن وراء كل علم، هي شعور المرء بأنه كامل من جميع جوانب الكمال ولا نزيد على ذلك، ولا بد أن الكمال غاية لا مزيد وراءها، وإن بلوغه بالمعرفة لا يتحقق سوى بالإمام، وإذا عطفنا كلامنا هنا على خطبة الإمام علي(عليه السلام) التي يأتي منها: "أول الدين معرفته - أي الله -"(21) سوف نجد تلازماً ضرورياً، بين: "من عرف نفسه فقد عرف ربه" وبين "أول الدين معرفة الله".

إن هذا التلازم يلتقي بالدقة عند منطقة الفطرة، لأنها المكان الذي يجتمع فيه العلم الأوّل الذي تنزع نحوه الحاجات والميول، فالمراد أن المعرفة كامنة في جوهر النفس، وأن جميع الأعمال الجارية من أجل أصلحها وهدايتها، هي سائرة نحو هذا المتجه، وإن الذي ينبغي أن تبذل من أجله كلّ جهود المعرفة، هو أين تجد ملاذها، وتطمئن الاطمئنان كله، وإذا بلغت بنا النتائج هذا المكان، وقيل أين هو؟ أو في أي جهة أو طريق ينبغي أن تتجه بنا الآليات المعرفية حتى نوجهها نحو الأمام؟ وما هو المصداق على جميع هذه الأطروحة؟ فإن هذا سيحيلنا إلى تناول الإجابة عنه في البحوث القادمة.

الفصل الثاني: بين الإمامة والقيادة

بعد أن اتضح لنا أنّ الإمام هدف تسعى نحوه الذات، ينبغي لنا أن نفرق بين الأمرين التاليين، لأنّ عدم الالتفات إلى الفوارق بينهما يعيق حركة الفكرة، أو يحرفها عن مسارها الذي تسعى نحوه.

الأمر الأول:

أن لا ينفصل مفهوم الإمامة عن شمولية الإمام وأن لا يتجزأ هذا المفهوم، وسنوضح ذلك فيما بعد.

الأمر الثاني:

التيقن من أنّ الإمام حاجة تسعى الذات البشرية نحوها بالفطرة، لتلمس هديها بجميع أبعاده، وليس يصح فيها العكس فيما نرى.

وبعد أن يتم هذا التفريق، وتتم معرفة هذين الأمرين، يمكننا أن نستوضح أبعاد كل منهما بحسب مقتضيات هذا المبحث.

أمّا عن الأمر الأوّل الذي يتناول ربط مفهوم الإمامة بمعناه الشمولي فإنّ أقرب معادل نجده له هو (المثال) في المصطلح الفلسفي، والمثال يساوي الكمال والغاية الأسمى التي تحدّد نزوع وسلوك ونشاط الفرد والجماعة(22)، إنّ هذا المثال يتموضع داخل كل رغبات الإنسانية مهما جفت وخفت بريق صفاتها، وهو يلهم الناس ويعبئهم ويرسم غاية كمالهم الفردي والاجتماعي، وهو بهذا اللحاظ المخلوق الكامل المتميز عن سائر مخلوقات الله تعالى، وتميّزه هنا ناتج عن اصطفاء إلهي تراعى فيه حاجة البشرية إليه، وهي كما سلف حاجة أصيلة وغير قابلة للتبدل أو التغير مع تواتر الأجيال، وهي في عمق الوجدان، وهي عين الأمر المبحوث عن مصداق في الخارج له، ولا يقبل أو يصح أن تخلو منه الحياة، لأنه لا يوجد إنسان لا يريد تحديد الاتجاه أو الموضوع الذي ينبغي له أن يتعلق به.

وسائل معرفة الإمام

الهداية

أبدأ من معرفة الإمام - الذي استحوذ على هذا المعنى - وهو أمر بحاجة إلى دأب خاص، وإلى إخلاص منقطع وراء هذا الدأب، ولهما أن يدومان باستمرار، أي أن يبقى القلب ملتفت دائم البحث، حثيث الخطا حتى يتحقق له ذلك، وفي حال الوصول إلى هذا الدأب، ومع التيقظ الحقيقي والانكشاف على الرجاء، والشعور ببلوغ لحظة الالتقاء بالجاذب المحبب لديها، يبلغ المرء مبلغاً يتمكن معه من الهداية.

والهداية بهذا المعنى هي تفويت فرصة صرف جهد النفس بغير ما طائل، وعدم السير وراء أمور تبدو لها وكأنها غاية السعادة، وكمال الطمأنينة، وعند بلوغها تنكشف عن مخادعتها وعدم صدقها وسرابيتها، فتصاب بخسران جميع الجهد والزمن الذي صرفته من أجلها، وهذه الخيبة لها ذكر في مواطن عدة من كتاب الله تعالى، منها قوله سبحانه: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)(23)، في تصريح واضح يلفت انتباه الناس، إلى أن فرص العمر الممنوحة قد لا تكون كبيرة.

لذلك لا ينبغي المغامرة بها في عدم البحث عن الغاية المرجوة منها، أو الاستجابة والامتثال لدافع التعلق بالمثال - أي الإمام - وهذا الدافع رافق البشر منذ بدايات وعي الإنسان، وهو الحافز الأشدّ توثباً في ملاك الدخول إلى عالم الهداية، الذي يصدقه قوله تعالى: (من يهد الله فهو المهتدي)(24)، فالهداية بجميع أشكالها منوطة ببذل الجهد للاستحواذ عليها، وعدم بذله موجب

للضلالة، وفيه قوله تعالى: (ومن يضل فأولئك هم الخاسرون)(25) فالربط القرآني بين الهداية وبين الخسران ربط يدفع إلى التأمل!

فمن المعروف أن الله سبحانه عادل، وليس من العدل أن يمنح الهداية بأمر منه لهذا الإنسان ويحجبها عن ذلك، وبالتالي فإن البحث والدأب وراء سمو الغاية، والجد من ورائه هو مسلك موصل لا محالة إلى الهداية، التي ترتبط بسبب موضوعي أوجده الله سبحانه وجعله في الإمام، ونجد إشارات القرآن الكريم إلى ذلك في غير مكان.

نأخذ مثلاً قوله تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)(26)، فمن بعض خلقه خلق سبحانه الهداة، وهذا البعض متزامن مع خلق سائر إلى منتهاه، وهم بينون واضحون غير خافين خفاءً يمنع الباحث من الوصول إليهم، وفوق ذلك فهم يباشرون الناس دعوتهم إلى الحق، وما هو هذا الحق الذي تهدي إليه هذه الأمة؟ ومن هي هذه الأمة؟

دعونا أولاً ننظر في جنبات الحق، فالحق هو ضدّ الباطل وكل ما هو باطل غير قادر على الاقتراب من مقام الحق، ومن الباطل مخالفة الفطرة السليمة التي تحفز في الإنسان تلك المقدرة على السير نحو الكمال.

يقول "صدر الدين الشيرازي": "جعل الله لكل شي كمالاً ينساق إليه بالطبع"(27) وبالنسبة لبني البشر، فإن الحق غاية تتشد لذاتها أولاً، ولإكمال بلوغ الغرض ببلوغها، وأما الذي يسوق إليها فهو الإمام، وإن الطبع هو فطرة وبديهي أن الغاية إزاحة الأذى وجلب المنفعة "فما من أحد إلا وهو نازع نحو سعادة يطلبها بجهد"(28)، لكن ليس كل طالب للسعادة بمدركها، مع أنها من حق الجميع، وهي هدف الجميع، لكن التقصير عنها أو بلوغها أمر مرهون بالأمة التي خلقها الله هادية بالحق، أي مرهون بمعرفتها الحق.

الأمة الهداة

لقد استخدم القرآن الكريم لفظ الأمة في مواطن عديدة، واللافت للتأمل أنه أطلقها على تجمعات بشرية وغير بشرية، فقال في غير البشرية: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)(29) وهي هنا في معنى الجماعات التي تجمعها خصال مشتركة في الجنس والنوع، لكن عند استخدامه لها في معرض حديثه عن الجنس البشري، فإنه يطلقها شاسعة، حتى يكاد الباحث أن يلتمس منها عذة مفاهيم، وتخوله هذه المفاهيم أن يجري مقاربات ترشده إلى أحكام دائرة الفكرة حول كل استخدام على حدة.

هذا يعني عدم إمكانية استعمال كلمة (أمة) ضمن مفهوم واحد موحد تبنى عليه نظرية أحادية الطرح، إنما يتعدى ذلك ليشتمل أمام الباحث المجال، في تقريب يوازن بين الأمة الهداة، والأمة التي يعني بها الخطاب القرآني، الجماعة من الناس وإذا استعرضنا عدد من الآيات الواردة في القرآن الكريم، والتي تستعمل كلمة أمة لوجدنا فيها ما يدعم هذا الرأي.

ونقسّم هنا هذا الأمر إلى ثلاث أقسام:

أ - عند استعراض الآيات الكريمة التي تستخدم كلمة أمة، في معرض إطلاقها على (فئة) من الناس، نجد قوله تعالى: (ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله)(30)، أو قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف)(31) وهنا مثلاً قوله تعالى: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)(32).

هذا ليس للحصر، لكن الملاحظ من استخدام كلمة (أمة) هنا أنها أتت للتدليل على (فئة)، ولهذه الفئة خواص بالإمكان التعرف عليها، فهي تقترب تقريباً بمجموعها من مفهوم (الفئة المؤمنة) ففي الآية الأولى: (أمة قائمة يتلون آيات الله) في التفريق بين

الانتباه الذي قام عليه الإيمان، وبين الغفلة التي يحياها من لم يبلغه، أي الإيمان منهم ليسوا سواء و(قائمة) هنا بمعنى مستمرة، أي لا تنقطع.

وفي الشاهد الثاني، نجد الخطاب يتجه نحو قيام فنة، أو الطلب لقيام فنة بالدعوة إلى الخير، أي بإيقاظ الغافل وتوجيه جنانه نحو (المثال)، كواجب من واجبات الهداة، إن لم يكن جلّ واجبه الذي ينبعث صادراً عن ذواتهم من غير انكفاء، (أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف).

وفي الشاهد الثالث: نلاحظ طلب إبقاء النعمة على من بلغت به مبلغاً بات يخاف على نفسه أن يمتحن بها، بل وهو راغب في استمرارها في ذريته، حيث يتضح ذلك الشعور الإنساني العميق، شعور التعلق بالله تعالى والاستسلام له، واستمرار هذا اليقين في الذرية التي تليه.

في هذه الشواهد الثلاثة التي استخدم القرآن الكريم فيها مصطلح الأمة نفخ على شراكة فيما بينها، وهي شراكة تفيد أنّ استخدامها للتعريف بفئة مؤمنة، إضافة إلى شواهد أخرى لا يتسع المجال لحشدها هنا.

ب - عندما يطلق القرآن هذا المصطلح على الجماعات بصفة عامة، فإننا نلاحظ أنه يطلقه على أكثر من مفهوم، وفي الغالب يستعمله للتدليل على أنّ الأكثرية ليست لينة الرأي، بمعنى أنّ أمماً تخلو وتزول وهي ليست على الهداية، بحيث يمكننا أن نستنبط من خلال جملة من الآيات الكريمات فهماً يدلّ على أن الهداة دائماً قلة، بل يمكن استدراج هذا لفهم وتضييقه لجعله منحصراً في نماذج معدودة وصولاً به إلى أفراد بعينهم!

فعند استخدام مصطلح أمة استخداماً واسعاً، فإنّ ذلك يقود إلى فهم الكثرة التي لا تخلو من غوغاء، أي التي لا تسترشد لشعورها بالقوة جراء هذه الكثرة، نرى ذلك مثلاً في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء) (33)، أو ما جاء في قوله تعالى: (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) (34)، وما ورد أيضاً في سورة الأحقاف في قوله تعالى: (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم) (35)، والشواهد أيضاً في هذا الجانب أوسع من الإتيان بها جميعاً.

والذي نرغب في قوله هنا، هو أن استخدام مصطلح (أمة) في القرآن الكريم، يتراوح ما بين (الفئة) و(الجماعة) و(الأفواج) ويمكن تأطير كل تسمية من هذه الاسماء بعدة آيات تدلّ عليها، وقد أجرينا نموذجاً على ذلك.

ج - وهناك احتمال آخر أفصحت عنه آيات كريمات أيضاً، وهو إطلاق هذا المصطلح على أفراد بعينهم، مثل قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) (36) وقد استخدمها المفسرون هنا - أي أمة - بمعنى القدوة والمعلم، وهي صفة من صفات إبراهيم، وليست هي الجامعة لصفاته، بل أنّ جامع صفاته هي في كونه (المثال) و(المثال أمة)، من الجذر اللغوي أمّ الشيء أصله، ومن الآية الكريمة التي ركزت على إبراهيم(عليه السلام) كمثل في قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً) (37).

إن استخدام مصطلح (أمة) فيما يخص إبراهيم هنا في الآية الأولى، يقبل أن يستند على مصطلح (إمام) الذي أوردناه في الآية الثانية، وهما يشتركان في جذر لغوي يفيد الأصل في الشيء أو في الأمر، وفي كلتا الآيتين ما يشير إلى بلوغه رتبة عالية هي مقام الرفعة الذي منحه الله تعالى إياه، وهو ما أطلقنا عليه إجرائياً (المثال) أو الملاذ.

وتلخص الآية الكريمة حقيقة إبراهيم(عليه السلام)، إذ جعل من قبل ربه مركزاً لهداية الناس وهذا المركز هيات أن يزول، إذ زواله يستوجب زوال إمامة الناس، والواضح من كثافة الجملة التي أطلقها القرآن الكريم أنها سرمدية، بمعنى أنها ليست لفئة دون أخرى فهو للناس وليس لأمة خلت.

لكن إبراهيم الإنسان البشري مات، فإلى أين توّول هذه الإمامة، وهذه المركزية؟

إنّ هذا السؤال الكبير سوف يقودنا إلى متابعة مفهوم الأمة الهداة، وفق المنهج الذي سلكناه في التعرف على الأدلة من خلال نصوص القرآن الكريم والعودة إلى كلمة الأمة، واستنطاقها، في محاولة لرسم معالم نظرية يشترك في وضع فرضياتها - إضافة إلى الكتاب الكريم - الأحاديث والمرويات والمصطلحات التي تستخدم في هذا الجانب من البحث.

المثال عبر الزمان - الإمام -

نود أولاً أن نشير إلى أن علماء النفس وعلماء الاجتماع متفقون على أن الإنسان يمتلك في أعماقه ما يمكن أن يطلق عليه (غريزة التدين)، أضف إلى أن علم الآثار المهتم بالحضارات الإنسانية الموعلة في القدم والعودة إلى بدايات نشوء الإنسان، أفصح - بالاستناد إلى ما تركت هذه الحضارات من دلائل آثارية - عن عدم خلو ذهنه من إيمان أو معتقد روحي يرمز إليه بشكل من أشكال الرموز(38).

ولم تخل حقبة زمنية ترك فيها الإنسان أثراً يدلّ على قيامه على أرض وثباته عليها من إشارات إلى تعلقه بمثال، تميل نحوه فطرته، وتصبو إليه أفكاره، وهو حتى الآن كذلك، ويمكن أن نأخذ قطعة آثارية تجمع ما بين الألف الرابع قبل الميلاد - أي قبل نحو من ستة آلاف عام - وبين الألف الثاني منه، تجمع بين المرحلة السومرية في معتقداتها والمرحلة البابلية والآشورية، وهي قطعة من (ملحمة جلجامش) الشهيرة، كي تصور فيها كيف أنّ الإنسان ينظر نحو (المثال)، وهو في غاية الرجاء والإعجاب وهو يعبر من خلال كتاباته عن تطلّعه إلى كماله، فإن لم يتمكن هو بنفسه من ذلك فإنه سوف يسوق هذه الرغبة نحو رمز يلاحظ فيه صفة أو عدة صفات، هي في الواقع تعبيرات عن نواقص يحلم أن يستكملها، لكن ربما لم يعثر على هاد واقعي له، فهو يراه في أنموذج آخر ما لم يعثر عليه حقيقةً، وإن كان هذا من علامات الضلال لكننا سنورد هذه القطعة هنا، كتأكيد على أن (المثال) ضرورة، بل حتمية إنسانية لا يمكن إنكارها.

تقول هذه القطعة في معرض وصفها للبطل النموذج، كمرّف عن التطلع الإنساني في بحثه عن (مثال)، وفي كيفية فهمه منذ أقدم الأزمنة لمن يجد فيه ملاذه:

هو الذي رأى كل شيء فغنيّ بذكره يا بلادي وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها وهو الحكيم العارف بكل شيء لقد أبصر الأسرار، وكشف عن الخفايا المكتومة، وجاء بأبناء ما قبل الطوفان(39).

هذا المقطع من الملحمة البابلية، يرجع بطلها جلجامش إلى 2650 ق. م. وهي تحمل بين أوراقها أفكاراً سومرية وأخرى أكثر قدماً، تعبر بمجموعها عن تعلق الإنسان بمن هو كامل، بالذي يتصف بصفات لا تملكها إلا آلهة بحسب مفاهيمهم، منها المعرفة الشمولية (رأى كل شيء)، أي عدم غياب شيء مهما صغر أو كبير عن ملكاته، عن بصيرته، وهو الذي (عرف جميع الأشياء) لأنه حكيم عارف مبصر لا تخفى عليه حتى الأسرار وما يكتُم عن الناس، وهذا يذكرنا بخطبة للإمام علي(عليه السلام) وهو يعظ الغافلين ويصوّر لهم حالهم في غفلتهم، ويشير إلى أنّه يعلم ويعرف خفاياهم، وأكثر من ذلك يقول(عليه السلام): "والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت"(40).

ونحن هنا لا نجري موازنة بين النص البابلي وبين خطبة الإمام علي(عليه السلام)، وإنما نريد أن نشير إلى أنّ (المثال) بالنسبة للبشر العاديين هو المخاطب - بفتح الطاء -، وإنما الإمام (المثال) مع تحقّقه وعيانيته فإنّه هو المخاطب - بكسر الطاء - وهذا التشابه بين النصين، واحد يُكتب عن الرمز الذي يرجو فيه الإنسان العادي كماله، والآخر ينطق به الإنسان الكامل ذاته.

- فعند (جلجامش) يقول الراوي عن رمزه: "هو الحكيم العارف بكل شيء"، "لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة".

- وعند الإمام علي(عليه السلام): "والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت".

هذا التشابه، ليس تشابهاً صديقاً، بل أنّ هناك علاقة ناجزة في حقيقة الأمر، بين تعبير أطلقته نفس تعبر عن احتياجاتها، وترسم الصورة التي تعتبرها مكمناً للغاية بالنسبة لإمامها.

- ويجب أن لا ننسى أنّها صدرت على شكل عمل أدبي راق، والذين يهتمون بالأدب يعرفون كم هو عميق الغور، ذاك الشعور الذي ينطلق من الوجدان كي يعبر عما يختلج داخل النفس.

كما يجب أن نتذكر أنّها سبقت عليّ (عليه السلام) بأكثر من ثلاثين قرناً من الزمن، ولو أردنا أن نحضر شواهد أخرى فإنّ الكتابات المصرية القديمة وحدها تحتاج إلى أضعاف أضعاف ما نحن بصدد، لكن كانت الغاية فقط إيراد أنموذج مواز للفكرة التي نبحث عن دلالاتها، وهي أصالة البحث عن الإمام في عمق الوجدان الإنساني، وقد عبّرت هذه المقطوعة عن توجه المحتاج، ورسمت ملامح كمالته التي يعتز بها، ويدأب من أجل الوصول إليها.

- وإنّه إن لم يصل، فيكتفي بتقديس شخصية تعبر له عنها، والواقع أنّ الإنسان بفطرته يبحث عن الله.

وهذا الأمر لا يفوتنا الالتفات إليه (يبحث عنه بفطرته وباحساساته).

يقول مرتضى مطهري: "إنّ من أرفع غرائز الإنسان واحساساته حسّة الديني، وفطرته في البحث عن الله" (41).

وهذا هو المجال الحيوي الذي تتحرك من خلاله قوى الروح نحو جاذبية فوق أي احتمال، لكن الواضح أنّ الإنسان في رتبة لا تؤهله لبلوغ هذا المقام، وإن قال عدد من الأفاضل بحصوله عن طريق الشهود الذي ينطلق من شهود النفس.

يقول الطباطبائي: "فالكامل الحقيقي للإنسان وصوله إلى كماله الحقيقي ذاتاً وعوارض، أي وصوله إلى كماله الأخير ذاتاً ووصفاً وفعلاً أي فناؤه ذاتاً ووصفاً وفعلاً في الحق سبحانه، هو التوحيد الذاتي والأسمي والفعلي، وهو تمكنه من شهود أنه لا ذات ولا وصف ولا فعل إلا لله سبحانه، على الوجه اللائق بقدس حضرته جلت عظمتها، من غير حلول واتحاد تعالى عن ذلك" (42).

- والواقع أنّ ذلك لا يكون، بل أنّ الله سبحانه يجعل الطريق إلى معرفته طريق قلب وعقل، فيرسل الرسل ويقوم الحجة، من أجل بلوغ الإنسان جادة الطريق الذي لا يعرفه حق معرفته غالباً بدون هاد، والطريق هو كما سبق تفويت فرصة التحول بالحقيقة الإنسانية إلى أمر آخر سواها، كي لا يصاب الإنسان بتعدد العبادات، أو بتعدد المعبودين، فينحرف عن التوحيد الذي هو زبدة الرسالات السماوية.

- وحين يتبين لنا عدم التعلق بما هو غير ذلك، وكي لا يتوهم المرء أنه يتبع رسولا بعدت المسافة الزمنية بينه وبينه، فينحرف عن سواء المعرفة، جعل الله سبحانه أئمة يهدون إليه.

- وإذا كنا قد اتخذنا من إبراهيم (عليه السلام) نموذجاً لهذه الإمامة، فلأن الآية المباركة حملت العهد على الإمامة وجعلتها شاملة للنبوّة والخلافة (43) فيما يتطابق على المثال، الذي يرغب الإنسان - مطلق الإنسان - في إدراك هديه.

- وعندي أنّ الإمام الذي يرفعه الله ويجعله قيماً ومركزاً يشع نوره على البشرية لا يختلف عن كتاب الله في شيء، لاشتراكهما في حقيقة واحدة، هي حقيقة الهداية، لقوله تعالى: (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) (44) والواسطة التي تجمع ما بين الكتاب والإمام، هي جعل الله لهما ميزة النطق بالحق، كقول الإمام عليّ (عليه السلام) في القرآن الكريم: "هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق" (45).

بهذا يكون الإمام (المثال) مجعولاً في هذه المرتبة من قبل الله عزّ وعلا، وهو بخلاف الآراء التي تنظر إلى الإمام عليّ (عليه السلام) أنّه الزعيم أو القائد الذي يملك زمام السلطة السياسية، أو إدارة حكم بلد معين، أو حتى فقيهاً نال رتبة من العلم بجهد ونباهة.

نعم يمكن استخدام مصطلح (إمام) في هذا المقام للدلالة على قيادته، من أم القوم أي رأسهم، لا لفضيلة الهداية التي اختص فيها الله أوليائه الذين هم صفوته، والذين فيهم الحفاظ على هداية الناس إلى دين الله من جهة، وحملهم على الطريق الذي ينالون به سعادتهم الواقعية في الدنيا والآخرة، لأنّ جدارة الشخص في ممارسة السلطة والتطبيق لا يعني مجال الشعور بإمكانية نصبه إماماً فكرياً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية(46).

الإمامة

بلغنا إلى تحديد مفهوم الإمامة بالمعنى الشمولي، وفق المصطلح الذي أجريناه في مباحثنا.

وعلى أثر تفرقتنا، أو وضعنا لهذا المفهوم الشمولي بالنظر إلى الإمامة كحاجة تسعى إليها الفطرة الإنسانية، نصل إلى النتيجة التالية(47):

إنّ الإمام ضرورة في حياة الإنسان، ولهذه الضرورة أهمية كتلك التي تعرف بحاجته إلى الطعام والشراب، فيهبذه ينمو جسده وبالإمامة يتلمس حقيقته، وبهما معاً يستعين على السير في طريق كماله، طريق استمتاعه بالحياتين، هذه التي نعانيها على وجه الأرض، وتلك التي نتهيها بعد الموت.

وباعتبار الإمام ضرورة - وفق هذه النتيجة - نرى أنه لا بد من بحث الرتب الاجتماعية التي حفلت بتسمية تشابهت عند الناس، بين الزعامة والقيادة التي تكون في الرئاسة، وبين تقدم الناس في رأي أو فطنه أو شأن من شؤون المعاش، وبين الإمامة التي هي الملاذ النهائي لكل إنسان لا لفئة ولا لخاصة ولا لقوم.

ومن أجل أن نتمكن من حصر المفردات ضمن ما يترتب عليها من معان تقرب الفكرة وتحيط بها ونخلص بعد ذلك إلى نتائجها، نرى أن نعرّف أولاً بالماهية التي تتحرك في أرجائها هذه المفردات (الزعامة، والخلافة، والولاية)، الأمر الذي يجعل من كل تسمية من هذه التسميات، فرعاً من فروعها تارة، وربما يتمكن أحد أن يقول: إنّها تنوب عنها تارة أخرى.

هذا صحيح عندما تكون العملية تفيد شؤون الحياة، بما يحتوي عليه من معاش وسياسة، واجتماع، واقتصاد، فيمكن أن نستخدم كلمة (زعيم) مثلاً عند التعريف السياسي، وأن نستخدم كلمة (خليفة) عند الإشارة إلى شخص يلي شخص قد سبقه في شأن، أياً كان هذا الشأن، فللخلافة أسبقية فهي لا تطلق على من يبدأ الأمر، بل على من يأتي بعد ذلك الذي بدأه، ويمكن استخدام كلمة (قائد) عند التذليل على من يمك بزمام الجماعة من الناس، ويمكن استخدام كلمة (رئيس) لأكثر من دلالة، لكن هي تعني المتقدم في حكمة أو علم أو ارشاد في الغالب.

وبالنسبة (للولاية) فإنّ لها مدلولات متعدّدة، أهمها:

1 - دلالتها على تملك شأن ومباشرته، وهو من باب السلطة على الشيء.

2 - المعاضدة والنصرة، وفيه قوله تعالى: (الله ولي الذين آمنوا)(48).

3 - الوصاية، وتجري مجرى الولاية التي تحصل على من لا يملك القدرة على التصرف بشؤونه، كالطفل أو العاجز، فتنقل ولاية أمره إلى من هو ممن خواصه، أو إلى سلطة تنتظر في شؤون الناس.

وفي الولاية بشكلها العام ما يفهم على أنّها قدرة على حمل المسؤولية، ولهذه القدرة درجات:

- منها درجة حمل مسؤولية احتضان بشر قصر، وإدارة أمورهم إلى أن يبلغوا درجة يمتلكون معها هذه المقدرة، فتنتهي هذه الولاية - الوصاية - عليهم.

- منها درجة حمل مسؤولية مال عام، أو خاص، والحفاظ عليه وتكثيره والاستفادة من حركته إلى أن يصل إلى الذين ولّوا عليه من وجدوه كفو.

- منها درجة حمل مسؤولية بلدان، وإطلاق يد الوالي القيم فوق شؤونها.

إلى آخر درجات هذه الولاية.

ولهذه الدرجات من المقدره اعتبار في الخطاب القرآني، ويمكن تلمس النظرة القرآنية إلى الدرجة الأولى منها، وهي درجة منتهاها، حيث يعيد الله سبحانه هذه الولاية بالمطلق إليه عزّوجلّ، بقوله: (مالك من دون الله من ولي ولا نصير)(49)، فهو الملجأ الحقيقي، وهو الناصر الحقيقي وتكرر هذه الآية في أكثر من موقع في القرآن الكريم، وهي تشدّد على أن يلتفت الإنسان إلى أنّ الله سبحانه، هو صاحب المسؤولية على كل شيء خلقه، وإليه ولاية أمر كل شيء، حتى إذا أراد الله بقوم سوءاً، فإنه لا مرد لهذا الأمر، وليس لهم من ولي سواه يقول سبحانه: (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)(50)، فتكون درجة الولاية العليا والأولى على مطلق الموجودات له سبحانه.

وبعد أن تبين لنا أنّ الدرجة الأولى هي لله سبحانه في الولاية، وأنّه حاكمها بالمطلق، نجده يمنحها عزّ وجلّ لبعض من الذين خلقهم، فمن يليق بهم أن تقترن ولايتهم بولايتهم سبحانه؟ فبعد أن حصرت ولاية الخلائق بالله سبحانه، حمل الرسول(صلى الله عليه وآله) هذه الرتبة كما حملها الذين آمنوا، يقول تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)(51).

والجدير بالملاحظة هنا أنّ هذه الآية التي تصرّح بأن ولاية الناس لله ورسوله والمؤمنين، هي الآية الوحيدة بهذا اللفظ في القرآن الكريم، التي تشترك مع الله في هذه الرتبة من أختارهم لهذه الدرجة، ونكون قد حصلنا على اعتبار الخطاب القرآني لهذه الدرجة، وهو اعتبار يرسى دعائم البحث، عن الذين تنبغي المعرفة بهم من الأولياء غير رسول الله(صلى الله عليه وآله)، لأنّ الرسول مخصوص بالاسم، أمّا الذين آمنوا فينبغي معرفتهم بما يحملون من صفات تمكن من تخصيصهم بعد ذلك بالاسم.



1 - المائدة: 104.

2 - رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية.

3 - لقب الرجل الأبيض عند الهنود.

4 - من نصوص لهنود أمريكا الشمالية، ت: صبحي الحديدي، الكرمل ع45، 1992، ص83 - 84.

5 - م. ن. ص. 85 - 86.

6 - نصوص الهنود، م. س. ص. 89 - 90.

7 - النجم: 23.

8 - المائدة: 104.

9 - الزخرف: 23.

10 - الأنبياء: 54.

11 - ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم الطنجي (1302 - 1377) من الذين بگروا في دراسات المجتمع، وله أسفار كثيرة، دُونَ بعد أسفار دامت ثلاثين عاماً كتاباً ضمنه خلاصتها أسماء (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

12 - معجم علم الاجتماع، دينكن ميتشل د: إحسان الحسن ط2، دار الطليعة - بيروت 1986 ص116.

13 - انظر: كتاب أسرار الآيات: صدر الدين الشيرازي، دار الصفوة بيروت ط1993، ص136.

14 - الكهف: 17.

15 - أنظر انجيل متى: 10/7، من التفسير التطبيقي للكتاب المقدس.

16 - عوالي اللآلي للأحسائي: 4/102، بحار الأنوار للمجلسي: 2/32.

17 - أنظر عوالي اللآلي لابن أبي جمهور: 1/246، مستدرک الوسائل للنوري: 11/138 (12643).

18 - أنظر غرر الحكم للآمدي: 9865.

19 - أنظر تحف العقول لابن شعبة: 286، بحار الأنوار للمجلسي: 75/165.

20 - غرر الحكم للآمدي: 8949.

21 - انظر: نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

22 - معجم المصطلح الفلسفي، توفيق سلوم: 427.

23 - الكهف: 103 - 104.

24 - الأعراف: 178.

25 - الأعراف: 178.

26 - الأعراف: 181.

27 - أسرار الآيات: م. ص. 175.

28 - المصدر نفسه: 157.

29 - الأنعام: 38.

30 - آل عمران: 113.

31 - آل عمران: 104.

32 - البقرة: 128.

33 - الأنعام: 42.

34 - النحل: 63.

35 - الاحقاف: 18.

36 - النحل: 120.

37 - البقرة: 124.

38 - انظر للتوسّع بصدد هذه مسألة استقرار الإيمان في عقائد الإنسان من خلال دراسات حضارية متنوعة منها على سبيل المثال: د. جواد علي، المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت دار العلم 1969، ميديكو اللآلي من النصوص الكنعانية، بيروت 1980، ول ديورانت، قصة الحضارة، الجامعة العربية 1949، الأب جرجس داوود، أديان العرب قبل الإسلام، فيليب حتّى مطول تاريخ العرب، الكشاف 1952، حتي فيليب، خمس آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، عفيف بهنسي، وثائق إيبلا، دمشق 1984، اولوف ارمان، ديانة مصر القديمة، ط البابي الحلبي، وهناك قائمة كبيرة من كتب الأديان والحضارات القديمة.

39 - د. فاضل عبدالواحد علي، من الواح سومر إلى التوراة، ط دار الشؤون الثقافية، بغداد 1989، ص130.

40 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 175.

41 - مرتضى المطهري، معرفة القرآن ج1، ت، جعفر الحلبي، ط طهران، 1402، ص82.

42 - رسالة الولاية، م. س. ص 59.

43 - أنظر: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، الألوسي: 1/375، وما بعدها.

44 - الأحقاف: 12.

45 - أنظر: وسائل الشيعة للحر العاملي: 27/34 (33147).

46 - أنظر: بحث حول الولاية، للسيد محمد باقر الصدر.

47 - هنا إشارة إلى الأمر الثاني الذي ذكر في أول الفصل الثاني.

48 - البقرة: 257.

49 - البقرة: 107، العنكبوت: 22، الشورى: 31، الأحزاب: 17، وفي سور أخرى.

50 - الرعد: 11.

51 - المائدة: 55.

إننا حينما أشرنا إلى أن الإمامة تجمع تحت ظلها كل من الخلافة والزعامة والرئاسة والولاية، فإن هذا الجمع فيما يختص بالشراكة التي منحها الله لأولياء الناس من الذين آمنوا، ولا ينبغي أن يفهم منها أنها تشتمل على الدرجة الأولى للولاية، والتي هي لله، بل نحن بصدد الإشارة إلى الدرجة البشرية، والتي تجمع بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبينه، وهو يربط بشيء من الحساسية والدقة، بين إبراهيم والمؤمنين والنبى (صلى الله عليه وآله) والتمسك بنهجهم، ربطاً يحتاج إلى بصيرة كي تقف عنده.

فالولاية التي تجمع بين إبراهيم (عليه السلام) والذين اتبعوه هي ولاية ارتباطاً، فالذين اتبعوه أشد ارتباطاً ووثاقة بإبراهيم (عليه السلام) من سواهم، وإن هذا النبى الذي هو وليّ أنفس المؤمنين هو الذي تحتشد في شخصيته وثاقته بإبراهيم (عليه السلام) الإمام، وولايته لأنفس الذين آمنوا، فيشتمل على رتبة الإمامة والنبوة والولاية، وهو المقام الذي تشغله قدسية ذات محمد (صلى الله عليه وآله) بالملق، منظوراً إليها على أنها الامتداد الذي لا ينقطع في حين من الدهر، لا في القديم ولا في الحاضر ولا في المستقبل، لارتباطها بولاية الله سبحانه التي لا تنتهي.

وإذا صح هذا الارتباط - وهو كذلك - فإن ارتباط ولاية الذين آمنوا بها ستكون قد اقتربت من ظهورها عياناً، كيف ذلك؟ نلاحظ في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم، أنه تعالى عندما يتحدث عن الولاية فإنه يشير إلى أنها رابطة تنشأ بين أطراف، أما ثنوية أو متعددة.

ففي الآيات التي نتحدث عن مرجعية الولاية لله سبحانه، يمكن أن نلاحظ الأمور الآتية:

يرتبط مفهوم الولاية في القرآن الكريم فيما بين الذين يتولون الله سبحانه - والذين يعرضون عنه - أيضاً بعدة جوانب، أهمها ذلك الجانب الذي يخاطب الفطرة خطاب تعيين، أي خطاب عالم متحقق من أنها تحفز البشر نحو الاستجابة لمطلبهم الأساسي، وهو بلوغ رتبة كمالهم، والذي لا يتحقق بدونه إمام يهدي إلى وصولهم نحو ربهم مطمئني القلوب.

لكنهم يغضون بصانئهم عنها، وعند ذلك نلاحظ أنه ينعتهم بالضالين (ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً) (1)، لأنهم خالفوا ذلك البسيط النقي في سرانئهم وعاندوا، فصاروا إلى ولاية الشيطان.

ونحن في مباحث الإمامة، ما نزال نتوسع شيئاً فشيئاً، باحثين عن نقاط كبرى وأساسية في نظرية الإمامة وفق المنهج الإسلامي القرآني.

إن، إن خطاب الفطرة هذا، هو خطاب يحتوي على تصريح بأن الله وليّ الذين آمنوا بعضهم أولياء بعض، وأن النبى (صلى الله عليه وآله) أولى بهم من أنفسهم، وأن الذين يبلغون هذه الرتبة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (2).

فالذين استجابوا لداعي الله، وكانت فطرتهم قد اتخذت لها ملجأ نحو ملاذها - أي إمامها - وبلغت درجة الإيمان، فإن القرآن الكريم يحاكي هذه الفطرة، يحاكي هذا الإنسان ذا اللب الفطن، بخطاب النصرة، أي ترتبط الولاية بالتأييد والنصرة والمعاضدة.

فإن الله هو الولي، وهو النصير الذي لا يوجد سواه ناصر عند الملجأ، وهو وليّ الذين آمنوا بالنظر إلى كونهم يتمتعون بهذا الحق الممنوح لهم من قبله تعالى، وفضلاً عن هذا، فإن الله سبحانه منح رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) ولاية المؤمنين على أنفسهم، بل جعله أولى بهم منها، وهو قوله: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (3)، أي أحق منهم بولايتهم على أنفسهم.

فثمة إطلاق ولاية أمر المؤمنين بمعناه الشمولي، أي بكل دقيق من دقائقه وبكل تفصيل من تفاصيله، وجعله بيد الرسول (صلى الله عليه وآله) حيث مكّنه من الولاية على نفوسهم، وجعلها أفضل من ولايتهم هم أنفسهم عليها.

وفي جميع هذه الحالات، نرى أن القرآن الكريم يشير إلى المؤمنين بشي من التخصيص، أي إلى أولئك الذين يبلغ إيمانهم تلك الدرجة الرفيعة التي تؤهلهم لأن يجعلوا ولاية أنفسهم بيد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهذا ليس لعامة من آمن فيما يفهم، إذ أن القضية ذات عمق أكثر، منها إشارة إلى السطح في درجة يسلم معها نفسه طوعاً له، كما يسلم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، عن يقين نفسه لولاية ربه.

ومن المعروف أن الولاية الإلهية هي ولاية خالق على مخلوق، وهذه تحمل جانباً من جوانب السلطة المتاحة في الأصل للمالك الذي بيده الأمر، وهو يخرجها منها ويعيده إليها، أما فيما يختص بعناية رسول الله (صلى الله عليه وآله) وولايته على أنفس المؤمنين، فإنها وإن كانت تحمل ذلك البعد الذي منحه إياه الرب عزّ وعلا، فإنها تتمتع بالإحالة إلى فهمها على أنها ولاية يطلبها المؤمن اختياراً، حيث أن سلطة رسول الله (صلى الله عليه وآله) - أي ولايته - على الأنفس نابعة من كون المؤمن بلغ درجة أيقن معها أن هذا الرسول (صلى الله عليه وآله) هو مخرجه ومدخله إلى ولاية ربه، لا عن طريق التوسط، بل عن طريق الدرجات التي يتقرب ويرتفع من خلالها المؤمن، ويفيدنا هنا أن ننظر في الآية المباركة التالية: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا) (4).

ولا ينبغي أن يفوتنا، إن هذه الآية قد جاء قبلها تحديد منهج الديانة الإبراهيمية، فقال تعالى: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) (5).

إن إبراهيم (عليه السلام) صاحب رتبة إمامة الناس المفعولة من قبل الله تعالى، وصاحب الخط الإسلامي غير ذي العوج، وهو أحد أهم ما يمكن أن تقاس عليه معرفة المؤمنين الذين هم في الرتبة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مفهوم الولاية، وكيف لنا أن نستدل على هذا؟

إن الطريق في الاستدلال بحاجة إلى التبصر في كتاب الله أولاً، فكتاب الله لا يأتي بالأمور اعتباطاً، بل هو (يهدي للتي هي أقوم) (6)، وعند الحاجة الحقيقية إلى نصرته، فهو يكفي من تولاه، ولا يترك حاجته عند سواه.

هذا قانون ثابت بين من قوانين القرآن الكريم، وهو دائم السيرورة، أنظر كيف يوهن القرآن الكريم من أتخذ أولياء له غير الله في قوله تعالى: (مثل الذين أتخذوا من دون الله أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (7).

الموازنة بين النور والظلمة

إذا كانت الفكرة قد استوت على جادتها، واستقام لذي بصيرة مفادها، فإن الإمامة عنت لدينا غاية الرجاء، وبها تستقيم المعارف، وعليها يتوكأ السائر إلى غاية ينفطر لأجلها عمره، وتسترق أيامه، لا عن عبودية لسوى الله تعالى، إنما عن طلب الهادي إليه، فهو سبحانه أشار إلى سبل معرفته بالافتداء بمن يهدي، على أن هذا الذي يهدي بالغاً مبلغ الكمال، الذي تخشع له النفس الإنسانية رغبة في اسهامه في تلبية طلبتها، يقول عزّ وجلّ: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي، فما لكم كيف تحكمون) (8).

إن لهذه الكلمات الشريفة سعة لمن أراد التوسع، فثمة من يهدي إلى الحق، وهو مفطور عليه لا يحتاج معه إلى تبيان، لأن الكلمات أرفقت بضرورة الإلتحاق لهذا الهادي الذي لا يحتاج إلى من يصوب له طريقه الذي يسلكه في عملية الهداية، قارن قوله تعالى في متابعة الآية الشريفة: (أمن لا يهدي إلا أن يهدي)، فثمة راية للحق تعرفها السرانر، لا يغفل عنها من ينظر إليها، وهذه الولاية خلفها محمد (صلى الله عليه وآله) في آل بيته (عليهم السلام) كيف؟

ننظر هنا في كلمات أمير المؤمنين(عليه السلام) لدى ترتيب هذا الأمر، يقول: "ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمد عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً، وخلف فينا راية الحق" هذه الولاية ما فتى أنبياء الله يورثونها سدنتها الحقيقيين، فهي أمان جملة الكون، لأن الله سبحانه تعهد بها وأجرى سنته في الحياة على الحفاظ عليها، وتوافينا متابعة كلمات الإمام علي(عليه السلام) بمزيد من الإيضاح هنا عند قوله: "ألا إن مثل آل محمد(صلى الله عليه وآله) فيكم كمثال نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون"(9) إن اللطيف صانع الملوك يعرف ما نأمل، ويعرف الرجاء الخفي في أعماقنا، فلا يكل أمر تطلعاتنا لسوى (المثال).

وعلى أساس كهذا نختم دلالتنا النهائية في مفهوم الإمامة ومعناها، ونشير هنا إلى أن الدين الإسلامي بما هو ختام للأديان السماوية السالفة جميعاً، قد أشبع مناورات النفس ومصارعاتها، ليقول كلمة تفصل بين الحق والباطل في شرحه لمسيرة البشر وتبينه لطرائق علاج ما يطرأ من مضر على السلوك السليم.

جدل الزوال والبقاء

سوف يسأل سائل: وما هو السلوك السليم حتى يوازن ما بينه وبين المرض؟

وتجيبنا الأبحاث العلمية في مجالات السلوك الإنساني، على هذا بالقول: إن تعلق الإنسان المفرط في أي من اللذات الغريزية يقود هذا المرء إلى هلاك من نوع ما.

فإن كان لجهة الأمور المعيشية، فإنه يبذل جهوداً من أجل تحسين معاشه بالقدر الذي ينبغي لجسده أن يحتمله، وإذا ما زاد الجهد فإن التعب كليل بالإتيان على قواه، وتدرجياً سوف يخسر تلك المقدرة.

وإن كان في وسائل اللذة الجسدية، فإن للجسد طاقة قبالة أية لذة، وعند استنفاد هذه الطاقة ينبغي الإسترخاء من أجل الإستعاضة، وفيما لو لم يحدث هذا فإن الجسد معرض للهلاك.

ولا نرغب في الإسهاب في هذا، فهو بين وغير محتاج إلى توصيف، لكن العلم والمعرفة غاية لا تهلك، وإنما تربي وتنمو، وتزيد بالتبصرة، وتعطي لكل شيء حقه، وهنا ممكن شغف الناس في كشف المجاهيل بكل أصنافها النافع منها والضار.

ونريد أن نوجز أخيراً فيما أسسنا له عند تناولنا جوانب الإمامة، بأن الإسلام دين واسع الأبعاد مليء بالمنفعة ملء الحياة، لكننا سوف نطرح سوالات هنا من صنف تلك الأسئلة الإشكالية، وغايتها من ورائه إشعال فتيل الفكرة التي تدخلنا إلى محراب الإمام علي(عليه السلام) كباب لمعرفة سر الإمامة في الناس، والسؤال هو:

هل قال الإسلام كلمته التامة وانتهى، أم أنه يختزن بعد ما لم يأت أوان البوح به؟ قبل الإجابة أو التحرك في أجواء هذا التساؤل، نأمل أن نلتفت إلى هذه الآية الشريفة يقول عز من قائل (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي)(10)، وقوله تعالى أيضاً: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(11) والناظر في هذه الكلمات الشريفة، يعرف أن الله سبحانه ليس مع خلقه في صراع حتى يشير إلى أنه سيعلم هو ورسله، وأن الأرض ليست ميراثاً لغير الصالح حتى يرثها فيما وراء ذلك الصالح، وإنما يفهم عند التأمل الدقيق لهذه الكلمات، أن الناس سوف تصل بالنتيجة إلى حتمية السير نحو تعليمات الله، لأن كل مسيرة في خلافها كيفما كانت لن توصل السائر نحوها إلى جهة تحقيق سعادته بدون الاسترشاد بهدي ربه، وإن التجارب الإنسانية والأنظمة التي يستمدّها من خلال تراكم خبراتهم وتوالي تجاربهم دائمة النقص ودائمة التغيير، إلا أنه سبحانه يرسى قواعد سلامة العيش في الحياتين، عندما يصف أن الغاية من وراء الرسل التي يرسلها تكمن في إقامة الناس على جادة الصواب بالعدل.

يقول سبحانه وتعالى: (لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(12)، يريد: لم نجعل الأمر على الناس غامضاً ملتبساً، بل أزلنا الشبهات، وبالرسل وافينا الناس بما يجعل سيرهم واضحاً، وطرقاتهم سليمة، ولكي يستمر هذا المنطق مع الأجيال، أيدنا الرسل بالكتاب الذي يحكم به بين الناس، وتوزن على أساسه مقامات السير الصحيح بهم من السير الخاطيء، والغاية كما تفيدنا الآية الشريفة هي أن لا يظلم البشر بعضهم بعضاً، ولا يظلموا أنفسهم كذلك.

إذا كانتك تصلّ معي أيها الأخ الكريم إلى أنّ الله سبحانه قد بيّن لمخلوقاته أنظمة العدل بعد أن أرسل الرسل، وأقامت هذه الرسل البيئته، وثبتتها الكتاب، وجميع هذه المراحل الرسالية تهدف نحو رجاء الناس في أن يحق الظلم الذي يشكل العائق الأول والأشد أثراً على تقدّم ووعي المجتمعات، وصلاحها وسلامة سيرها.

وبدلالة عدم إنقطاع طرائق العبادة تاريخياً وحضارياً بين بني الإنسان التي لفتنا إليها في أماكن متقدمة، نتعرّف على أن الدين لم يخترع من قبلهم وإنما بادر الرسل إعطاءهم النصيح وتعلم البقاء في كنف الله، حتى يتيسّر لهم المسير نحو العدل، ولا يظلم بعضهم بعضاً، فكانت النبوة شجرة تمتد فروعها أبداً وفي كل فينة وأوان تؤتي ثمرة من ثمارها، ولهذه الثمرة التي تنعم بها الحياة امتداد واستمرار، يقول علي(عليه السلام) في ذكر النبي(صلى الله عليه وآله): "اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذوابة العلياء، وسرّة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة"(13).

وهذه الشجرة أصيلة في وجودها، ترعى الخلاق بثمارها ولهذه الثمار موازين، هي مقامات الخروج من الظلمات والولوج في ملكوت النور، ومنابع الحكمة التي تسري في وجود الحياة، لكأنك هنا تلحظ معي ذاك الربط بين النور والظلمة، هذا التضاد، وبين ينبوع الذي يرمز إلى الماء الذي هو سرّ الحياة وعلى هذا القول نقف قليلاً لنتبين الروابط التي أشار إليها عزّوجلّ في كتابه وبيئتها نبيّه محمد(صلى الله عليه وآله) والإمام علي(عليه السلام) في نهجه.

يذكر القرآن الكريم في العديد من المواضع، أنّ الذي ينحرف عن سبيله يلج الظلمة، وأنّ سبيله هو النور كلّ، والذي لا شكّ فيه هو أنّ الله سبحانه خلق الخلاق محبباً لها وهذا داعي متابعتها بالهداة أبداً، ويقول تعالى في وصفه لأوليائه (الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)(14).

ولعلنا نستدرك بشيء من التأمل أن تولي الله غير متحقق بدون الإلتفات إلى الرسل الذين بعثوا بالبينات والنظر في كتاب الله الذي يحمل في جنباته النور، وننظر هنا في قوله سبحانه: (فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه) (15) والنور هنا هو الكتاب أو ما في الكتاب، بحسب ما يستلهم من قوله تعالى:

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)(16) أو قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)(17).

وإذا استرسلنا في متابعة الذكر الحكيم واستخراج ما يفيض الله سبحانه، نلاحظ أن النور الذي يبعد عن القلب حجب الظلمات، له وطن واحد يعرف به، ويلجأ المخلوق نحوه، وهو مستودع هذا النور، وهو (النبي، الرسول، الإمام) في آن واحد معاً، يذكر سبحانه هنا قوله: (هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور)(18) ففي الناس من يهدي دائماً إلى نور الله قائماً بكلماته، غير عابئ بخلاف الحق، فيه خصال الجمع لمواطن العدل، كما رسخ عزّوجلّ بإبراهيم(عليه السلام) ذلك المستودع العظيم للشأن الشامل للنبوة والإمامة حين أعلن نصاب هذه المرتبة بقوله: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمتهن قال إني جاعلك للناس إماماً)(19)، ومعلوم أنّ الله سبحانه واطر الرسل في الناس، يقول تعالى: (سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً)(20) وقوله: (ثم أرسلنا رسلنا تترأ)(21).

إنهم كما سلف شجرة النبوة، الهداة إلى الحق بنور ربهم، وقد جعلت فيهم وفي ذريتهم خاصة، ولنقرأ معاً هذه الآية المباركة:

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب)(22) التي تدلنا على المواطن الذي لا يتحوّل إلى سواه اللب عندما تكون النفس باحثة عن غشية النور، فارة من دياجي الظلمات.

ويمكن أن نسلّم من كتاب الله ما يفيدنا أنّ مثل هذا المقام ليس من العسر بلوغه، بل أنّه في غاية اليسر، فالفارق الجوهرى بين النور والظلمة كما بيّناه من المنظور القرآنى، هو قيام الناس بالقسط بحسب ما تقدّم، ولكن هل هذا المطلب قليل حتى لا يستجيب له الناس، هل يرغب بنى البشر بتعقيدات وتنظيرات وفلسفات حتى تتكشف لهم وسائل التحقّق من سلامة العيش. هنا تكمن أهمية ما تقدّم من مباحث الاستجابة للفطرة السليمة، التي تصبو النفس لرفع الحجب لتعرف إمامها، والذي نعول عليه أخيراً، هو الفارق بين من أبصر ومن هو غاض بصره، كيف؟

لنستمع إلى هذه اللفتة القرآنية في تحديد منازل الظلمات والنور، يقول سبحانه وتعالى: (هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور)(23)، ثمة ما يثير في المتأمل شهوة التعمّق في هذا الكلام، حتى يبلغ بإذن الله مراده لعل الظلمات مساوية للعمى هنا، مثلما النور مساو للإبصار وفي الموازنة بين الإبصار والعمى، ينبغى أن ندخل عمق وروح هذا التعبير، بعد أن نعرض الآية التالية: (وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور)(24).

اتضح لنا الآن سوية النور وسوية الظلمة، إنّ النور يساوي الإبصار بحسب هذا الاستنتاج، كذلك تساوي الظلمة العمى، لكن الواقع أنّ العمى الذي ترجح الإشارة إليه هنا، ليس عمى العيون التي تنقل المشاهد الخارجية إلى العصب البصري ليذهب بدوره إلى مركز الاستقبال الدماغى فيكون له معنى ينطبع في المخيلة، وإنّما الوارد أن يكون هذا العمى هو عمى الذات، أي تيهها واستغرافها في الجهل وعدم دراية المتجه مع وضوحه وبيانه، وهذا يؤخذ من قوله تعالى: (فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(25) وإذا حملناها على هذا المحمل، فإنّ القلب الذي يشار إليه في القرآن هو مركز التعقل ومكمن الإستجابة للنداءات، وهو الذي يقابل الإبصار بالنور، أو الذهاب في العمى.

وتشير الآيات الكثيرات اللواتي يخاطبن قلب الإنسان لا عناصره الخارجية، إلى أنّ المقصود بالموقع الذي يخاطب على الإستواء بين الإبصار والعمى هو القلب يساوي الحقيقة العاقلة البشرية، فننظر قوله سبحانه: (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(26).

وغني عن البيان أنّ القلب المشار إليه والذي يتولّى مهام التدبّر، هو الذي يملك آلية تقليب أوجه الأمر واستشفاف ما ينفع مما يضر، كذلك عند سماع هذه الكلمات: (نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين)(27) فالرسالة عهد الله، ونوره كتابه، تنزل على القلب الذي يملك تحملها وحفظها ومبادرتها.

وكذلك لا يسع الباحث أن يقول أنّ القلب هو تلك العضلة التي تشبه المضخة التي تقذف الدم إلى العروق، إنّما هو الجوهر الإنسانى المخاطب، وهو مكمن الفكرة الخالصة، وروح العقل، لذلك تشير الآيات الكريّمات إلى أنّ القلب مكان التعقل والتفكّه والتفكّر ويقول تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها)(28)، وهذا المكان هو موطن الإيمان بعد ذلك، وموطن عدمه أيضاً، في قوله تعالى: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)(29)، وقوله تعالى: (لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)(30).

من جميع ما تقدّم وسواه من واسع فيض كلامه سبحانه، نستنتج أنّ القلب هو المواطن الذي استهدف رسل الله ايناعه وعملوا على انباض جنباته بالنور، وهو مركز استقطاب هذا النور، وهو الذي تتعيّن الفطرة في عمقه، فإن حجب عمى، ولا يستوي حين ذاك صاحبه مع من لا يرى إلى أين ولا كيف يسير، وعلى هذا القلب أن لا يتباطأ منذ الآن، ثم التعرف على هدايته من أجل التقاط خيط النور، والإفلات من ضلالات الظلمة.

وإنَّ الله سبحانه بما خصَّ به مخلوقاته من حبِّ، بأن أفاض عليهم نعمة الوجود، لعالمٍ بسرانهم، كما هو عالم بما يصرفهم عن حقيقة بحثهم ودأبهم نحو مثالهم وكمالهم، فواتر فيهم أنبيائه منذ أقدم عهودهم، وأيدهم برجالات ينصرونهم، وتمايزت القلوب في المؤيدين، وتفاوتت منازلها كلِّ بمقدار، إلاَّ أنَّه سبحانه لم يخل الأرض من هادٍ أبداً، وهذا الشأن يلاحظ في قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)(31)، فهو يدلُّ على أن الهداة لا ينقطعون من جهة، وأنهم من جهة ثانية يودون أدوارهم.

وإلى هنا نصل إلى أنَّ (رأية الحق) تخلف في الهداة، وأنَّ الإمام لهو الملاذ (المثال)، فلعمري لا تكون هداية الناس إلاَّ إحدى خصائصه، وليست جميعها.

الطريق إلى الإمام علي(عليه السلام)

علينا أن لا نستغرب من هذا العنوان، لأنَّه وضع بعد ذلك التمهيد الذي اعتمد منهج التحليل والاستنتاج، من أجل وضع لبنة جديدة في بنيان مفهوم الإمامة عسى ينظر إليها بعين التأنّي، وتؤخذ مع من يتوسع بها إلى ما هو أكثر إفادة ونفع. ونحن في هذا الفصل بحول الله سوف نحاول الإجابة على مجمل ما يرد على تلك المقدمة في الإمامة من أسئلة أو إشكالات، كما سنحاول بالنتيجة أن نعطي تصوراً موضوعياً في الإجابة على السؤال الإشكالي الذي طرح قبل قليل حول كلمة (الإسلام). نبدأ أولاً بالنظر إلى انطباق مفهوم الإمامة الذي أجريناه في بحوثنا على الإمام علي(عليه السلام)، ويفيدنا في هذا المجال أن تقسم هذه البداية إلى عدّة أقسام:

القسم الأول: في تسلّم رأية الإمامة

نود أن نذكر بأننا وصلنا في الفرق بين الإمامة وأنواع الزعامة التي تنضوي تحت ظلها، ولا تطاولها بحال، ونرغب أن يستمر القارئ معنا في التمسك بالطريقة القرآنية التي تجعل من القلب وطناً للتعلُّق.

لقد سمح لنا التحرك في أرجاء المفهوم أن نغادر المعنى الظاهري لكي نتعمق في معرفة الإمام في عيانيتها، وتراءى لنا أنَّ الفرق بين النور والظلمة يساوي الفرق بين الإبصار والعمى، ونلاحظ أولاً أنَّ علي بن أبي طالب(عليه السلام) في كلماته يتناوب كلمة (ضياء) كلِّما ورد ذكر محمد(صلى الله عليه وآله) أو ذكر القرآن الكريم، أو ذكر أهل البيت النبوي(عليهم السلام)، كذلك نرى أنَّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) عندما يشير في كلامه إلى أهل بيته(عليهم السلام)، فإنَّه يصفهم بأداة النجاة من الغرق، والتي تشبه إلى حدِّ بعيد مفهوم الخلاص من الهلاك، والذي يمكن أن يحمل على أن النور هو الخلاص، والظلمة هي الهلاك، فكيف يستدل على هذا النور؟

بالدرجة الأولى ينبغي أن تنقطع نهاية هذا الأمر إلى الله سبحانه فهو الذي يحيله إليه، يقول سبحانه: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)(32)، لكن هذا الإخراج كما لاحظنا مشروط وفق القانون الإلهي بالإيمان، والإيمان كما بيناه في بحث الفطرة لا يأتي من غير دين، وإذا كنا قد بلغنا في متابعتنا لمسيرة النفس الإنسانية وما تحمله من قابليات، وتبيّن لدينا أنَّ الإنسان بطبعه منصّت إلى نداء داخلي يتعلق به من قبيل الاعتقاد، وسقنا على ذلك شواهد العلمية، نصل بعد ذلك إلى حتمية أورها الإمام علي(عليه السلام) في كلماته، المفتاح الذي يفتح قفل هذا الأمر، وهو كلامه الآتي يقول: "أول الدين معرفته - أي الله - (33)".

واللافت يقيناً أن هذا القول لا ينحصر بالإسلام، وإن كان لا يرى فوق أو غير الإسلام ديناً، إنّما هذا يلفت إلى الأديان كلّها باعتبارها يصرّح بالأوليات التي تبني عليها فيما بعد النتائج، وهو يسلسل هذه النتائج معتمداً هذه النقطة الأولية على أنّها مفتاح

البداية (أول الدين معرفة الله)، والذي يقودنا إلى هذا، هو أن الله سبحانه خلق الخلائق وهداها إلى نوره، فمنذ البدء ثمة هذه الأولية، منذ تكوين الناس وإعمارهم للحياة، وهو الذي فطرت عليه الإنسانية، وهنا نملك أن نقول: إن المعرفة بالضرورة توصل إلى الإيمان.

وهذا الإيمان الذي تشكل من جرائها ترتبت عليه درجات الكمال التي يشير إليها (عليه السلام) في متابعة كلامه، بقوله: "وكمال معرفته التصديق به".

ويقول "الطباطبائي" في معرض شرحه لهذه الجملة: "والتصديق هذا هو الذي يوجب خضوع الإنسان له في عبوديته، وبهذا التصديق يرسخ الاعتقاد ويثبت، لذلك كان هذا التصديق كمال المعرفة" (34).

عند هذا المقام سوف تنطبق الآية الكريمة على أن الله سبحانه يتولى إخراج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، ولكن هذا لا يكون قبل الخضوع للعبودية بحسب قول الطباطبائي.

وإذا حملت هذه العبودية على أولية المعرفة ومتابعتها إلى كمالها، نجد أن الله سبحانه في هديه أجرى قانوناً أوردته في كلامه عزّ وجلّ، هو إرسال الرسل وتزويدهم بالكتاب وهم ملاك الطريق إليه، يقول سبحانه وتعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) (35)، فيمارس الرسول هذا الدور بما أوتي من خصيصة تشتمل على الولاية، فالله عزّ وجلّ كما أثبتنا قبلاً هو صاحب الولاية المطلقة على جميع خلانقه بلا أشكال، وهو الذي يتولى المؤمن ويخرجه من الظلمات إلى النور، وهو الذي يمنح هذه الرتبة للهداة الأول، يمارسون بدورهم الممنوح من قبله عملية إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

لكن هل انحصرت هذه العملية بالرسول والأنبياء؟ وهل هذه الوظيفة الكونية بما لها من ضرورة وأهمية دائمة أبداً ما دام هنالك بشر على وجه الأرض تنقطع برحيلهم عليهم الصلاة والسلام؟

من الناحية العقلية لا يظهر أن ذلك يكون، وعنته واضحة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسيرة الحياة الإنسانية، والذي عليه الحال أن المجتمع الذي يعتق اعتقاداً دينياً حصل عليه من قبل نبي أو رسول ثم تغيب هذا النبي أو الرسول، لسبب ابتعاد أو وفاة أو أي سبب آخر وإن كان قد أنجز رسالته، فإن هذا المجتمع يأخذ تدريجياً بتغيير هذا الاعتقاد، وفي مثل هذا الحال تذهب العقائد نحو تبدلات تطرأ عليها، وقد تكون هذه التبدلات منذ البدء طفيفة وتأخذ مع الزمن بالتطاوّل أو التفرع، وقد تكون كبرى كتلك التي حصلت مع نبي الله موسى (عليه السلام)، حين غادر أتباعه إلى ميقات ربّه واختفى عنهم وخلف فيهم أخيه هارون (عليه السلام)، وأنه لما رجع إليهم وجدهم قد انحرفوا انحرفاً كبيراً عن التوحيد ودخلوا في الوثنية من جديد.

هذا الانحراف الكبير يورده القرآن الكريم في معرض الكشف عن طرائق البشر في التعامل مع هدايتهم، على الرغم من أن هذا الهادي يصرف كل جهده في دعوته ويعرض حياته للخطر الدائم والأكد، لأنه لا يلين ولا تعرض عليه عوارض قبول التخلي عن رسالته، لذلك كانت الهداة صفوة خلق الله كما يرد في عدد من آيات الكتاب الكريم، وإذا كان موسى (عليه السلام) من هذه الصفوة (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) (36)، وقد برز إلى فرعون وأنجز رسالته وأوفى إلى الذين اتبعوه.

إذا كان موسى ما يزال بين ظهرانيهم، وغادر مستجيباً لداعي ربّه، وخلف فيهم نبياً هو هارون، وأن الفاصل الزمني هو عدّة من أيام، نلاحظ كيف انقلبت العقيدة التي تركها فيهم هذا الوقت، يقول الله سبحانه هنا: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجباً) (37)، وأين كان خليفته هنا في هذه المرحلة البالغة التعقيد؟ أين كان هارون؟

ويقول الله تعالى في متابعة القصة، إن موسى عندما عاد إلى قومه وجدهم قد آلوا إلى العجل فقال: (بنسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)(38).

وفي الواقع إن الخليفة الذي تركه الرسول موسى (عليه السلام) لم يكن ضعيفاً ولا ليناً، حتى يقبل بالنزول عن عقيدته، بل أنه - بحسب القصة القرآنية - كان رجاءً توسل موسى لله تعالى أن يحقق له ليثد به أزره، ويؤيده بنصرته، لكن الحق أن طبائع الناس في العقائد والأديان عرضة للاهتزاز إذا لم تكن الهداة على رأس حياتهم دوماً، ومع أنهم يكونوا كذلك، فإن التعبير والتحريف في العقائد نصوصاً أو وصايا أو أفعال يجري، فكيف عند غياب المركز؟!

لكن على الرغم من ذلك، نجد نسقاً من المؤمنين بالأديان لا يغادر الصواب، وأنه إن حصل ذلك وغادرت فنة أو فرد أو جماعة، فإن قلوبهم قابلة لإزاحة العمى والعودة إلى جادة النور، وهؤلاء يحظون بعناية كبيرة في الذكر الحكيم، ونلاحظ قوله تعالى في هؤلاء الذين يؤمنون بالأنبياء ويعتقون دين الله تعالى، ثم يبتعدون عن جادتهم أنه جل وعلا يصفهم: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً)(39).

وهنا يستعرض تعالى شريحة تغادر رسالة أنبيائها بعد أن آمنت، وتضيع عباداتها، لكن ثمة تلك الفئة التي اهتزت موافقها القابلة للرجوع يذكرها هنا قوله سبحانه: (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً)(40).

يتضح لنا من خلال هذا أن الناس يوقنون، ثم يتبدلون، ثم يرجعون، ومنهم من يفجر فلا يملك طريقاً إلى نور ربّه فيضل ضلالاً، بحيث يصبح قلبه في دياجى الظلمات، وترسخ هذه الظلمات في وجوده، فينطبق عليه القول أنه ضلّ بما لا يمكن بعد ذلك شيء من الرجوع، ويصدق عليه قوله سبحانه: (فلن تجد له ولياً مرشداً)(41)، لأنه أقفل على قلبه، وغادر فطرته إلى الأبد، فلا ملاذ له ولا إمام له فهو في عتمة لا نور فيها.

وفي الناس من تلج الظلمة قلبه، ويستغرق فيها رداً، ثم تتجه خطا نفسه نحو تطلعات النور، فتقترب منه تدريجياً إلى أن تلوذ به، وتتحسس آنذ بواعث الرحمة والهدى، وتتكشف على إمامها، وتتوب من ذاك الذي أقلقها لحين من الدهر.

في حمل راية الحق

ونبتين أيضاً أن راية الحق هي راية النور، التي يخرج بها الله الناس من الظلمات تحملها الأنبياء، فتنتشر ضياءها إلى الناس، وعند مغادرة النبي يحملها من يقوم مقامه.

وأى مقام هذا؟، بدون شك هذه ليست وظيفة إدارية، ولا هي زعامة سياسية أو عسكرية! أظن أن القارئ الكريم، قد انكشفت له الآن بعمق ماهية الفارق بين الإمامة التي ينظر إليها الناس على أنها شكل من أشكال التقدم في شؤون العمل الحياتي، أياً كان هذا العمل، وبين الإمامة التي هي مقام حمل راية الحق، راية النور، المقام الذي يخرج به الله تعالى الناس من الظلمات، وهذا منصب لا يُعطى لأحد إلا بالمشيئة والقرار الإلهي.

كيف ذلك؟ نستمتع إلى هذا الكلام المبارك من قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)(42)، إن مفهوم الاصطفاء الإلهي هنا لا ينازع، بمعنى لا مدخلية للمخلوقين في إقراره أو عدمه، فالمنطق الذي يحكم حمل راية الحق هو منطق الحكمة الإلهية، وإذا كان الله مولى الذين آمنوا (يخرجهم من الظلمات إلى النور)(43) قد أنجز مشيئته في وضع الهداة إليه وحمله راية نوره، فالحق في الإقرار بهذا أو نفيه ليس من صلاحيات البشر.

ولقد ثبت على أرض الواقع أن هؤلاء الذين اصطفاهم سبحانه هم الذين أنجزوا مشروع الدين في الناس على مدار الأزمنة، وإذا أراد المرء أن يتابع حركة مسيرتهم، فإنه لن يقف على خلاف الحق، ولن يجد فيهم الزيف عنه قيد أنملة، لا لأنها وظيفة

يمارسونها، فالوظائف التي تمارس فيها الأعمال عادة لا بد من الوقوع فيها بالأخطاء، كيفما كان شكل هذه الأخطاء، صغيرة أم كبيرة، خفيفة في ميزان النظر أم ثقيلة، وإنما هي كينونة، هي حقيقة، و(النبي الإمام) الذي جعله الله مصداقاً لرحمته في الأرض هو (المثال) وهو مركز النزوع الإنساني إلى الكمال، وهو إذاً المصطفى من قبل ربّ الناس، ليعبر عن نور الله الذي يتحرك في الأرض مجسداً، بعد أن وضعه الله في القلب البشري فطرة، ودارت عليه الأزمنة، فغشيت حالات الصدا، ولا يركن إلا للحقيقة التي تعمل توجيهات هذا الإمام على إظهارها فيه.

هذا المسجد لهذا النور هو قائم في الناس، لا يتغيّب، وهذا القيام له تحققات متعدّدة، سوف نتحدث عنها في مكان لاحق من هذا الكتاب.

نلتفت هنا إلى أنّ (الإمام) الذي يجسّد هذه الحقيقة، هو بالضرورة بعد أن فهمنا الاصطفاء غير قابل للخطأ، ومن هنا تتبع أهمية فهم مسألة (العصمة) وعند هذه النقطة لا ينبغي الاختلاف في تفاصيل صغيرة أو كبيرة حول ماهية العصمة، فالمصطفى من الله تعالى، المعبر عن نوره الحامل له كهاد لمخلوقاته، لا مجال لتناوله تناول البشر الذين يحسنون ولا يحسنون، أو يخطنون ويصيبون، فما البشرية عند (الإمام) سوى مظهر ألبسه الله إياه في ثياب الجسد، وهذا ليس قولاً تعسفياً، إنّما هو واقع حالهم(عليهم السلام).

من هنا كانت لهجة النبي كلّ نبيّ لا تحمل بين مفرداتها سوى إيقاظ قلب الإنسان من أجل سلامة مصيره، ولو كان لهم مثلما للناس العاديين، وكانت لهجتهم تشبه من يرغب بإنشاء ملك في الدنيا، أو تتنازعه غرائز البشر في الشهوات كافة.

فالراية هي التي دليل النور، يقول فيها الامام علي(عليه السلام): "وخلف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق"(44)، هي هذه ولا شيء سواها، (راية النبوة) راية هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فمن أراد أن يطفى نور الله عمل على إخفاض هذه الراية، ومن أراد أن يستنير بنور الله لزمها، لم يتخلف عنها ولم يتقدمها.

وفي هذا المقام يطيب ذكر حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله): "من كنت مولاه فعلي مولاه"(45)، والذي يوجب إيراده هنا، هو وصولنا إلى قرب نهاية القسم الأول من الطريق إلى الامام علي، الذي نوجزه بالتالي:

لقد أجرينا عملية دمج بين (النبوة والرسالة والإمامة) وفق تصور مبني على أنّهم حقيقة واحدة، يفترون في التسميات ويلتقون في الغايات، ويكون الافتراق مبني على إحدى ضرورات المرحلة التي تكون البشرية بحاجة إليها فالنبي الهادي والرسول والإمام يقومون جميعاً بإظهار حقيقة النور والعمل على إزاحة الظلمة، وهم إما أن يكونوا موجودين معاً، أو أن يتبادلوا الأوقات، أو يأتي واحد وراء الآخر أو قبله.

وأما حول مصدر هذا الدمج، فإنه بالإضافة إلى ما أوضحه القرآن الكريم حول نبوة ورسالة وإمامة إبراهيم(عليه السلام) فإنه أشار إلى تقلب هذه الحقيقة في الذرية التي بعضها من بعض(46)، وإنّه لما لم يكن الله سبحانه ليفرق بين أحد من رسله، فإنّ كل رسول بمثابة نبيّ وإمام وهذا يجري على الإمام والنبيّ مثلما يجري على الرسول، وعلة هذا القول بنصوص القرآن الكريم (لا نفرق بين أحد من رسله)(47) أو قوله (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم)(48)، فإذا كان كل رسول هو نبيّ وإمام كإبراهيم، وهو مقام الصفة، فإن توريث راية الحق هو شأن من شؤون الله سبحانه، لأنّ الاصطفاء أمر إلهي لا دخل لأحد فيه، كذلك خيار استمرار الرسالات لا لأحد قدرة على التدخّل فيه، نعم قد يتم التدخّل ليس في الإمام، إنّما في طرائق نقل المعارف، أقصد في الوسائل التي يمارسها الناس في نقل العقائد، أما موضوعه الإمام، فهي وفق ما تبين مشمولة بحمل راية الحق، وهي راية الرسل تدفعها إلى أهلها.

والذي يتحقق من وراء ذلك أمور عدة، منها أنّ الله سبحانه يعلم طبائع بني الإنسان، فإذا غادرهم الهداة، تخبطوا، بين من يلج الظلمة فلا يرجع عنها وبين من يبحث له عن مثبت قلبه على هداه، وبين من لا تغره الأشياء التي تعصف لا بهؤلاء ولا بأولئك، لكن هذا النوع الثالث نادر ندرة شديدة، بحيث تلتقطه أنفاساً منهم مع كل رسول ونبي وإمام، وتكاد تعدّهم دائماً على الأصابع، أما أولئك الذين بين بين فعددهم وفير، وهم بحاجة مستمرة إلى من ينظر في شأن قلبهم ويبقي له سراج النور، وإذا ما نظرنا إلى الذين يلجون في الظلمات أيضاً وجدناهم غير قليل عديدهم.

وبين هذه المراتب الثلاث تخلق عمليات الجدل المستمرة وتدافع الأفكار واختلاق ما يثير استمرار البحث والدأب، ويصعب أو يندر أن تتوقف الحاجة إلى إثارة أمر من أمور الدين أو الدنيا، ولا تنقسم حوله الآراء والأفكار حتى يبلغ مراحل تأخذ بناصية المعارك وتدور بين الناس الحروب جراء الاختلافات، وتهرق الدماء، وهذا معروف في جميع مراحل البشرية.

من هذا المنطلق وسواه، تصبح مسألة إبقاء الرمز المثل (الإمام) في واقع الناس أمر ضروري، فغيابه يفرغ المساحة للفتنة، وإن كان وجوده لا يلغي مثل هذا الأمر، إنّما في الحد الأدنى هو يخفف من شدة تدميرها وأثرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نصاب القسط الذي تسعى الرسالات من أجل إبقائه وإقامته، يلزمه دوام ممثل للحق، رافع لرايته، وكثير من الناس من يمثلون حمل هذه الراية، ويخدعون ويمارسون أدواراً تمثيلية على الناس، لمصالح أو أغراض توتي منافع أو تشبع حاجة أو تخلد مأثرة، إنّما الإمام الذي هو شأن إلهي فهذا أمر ينبغي الإضاءة حول معرفته، وقد تولى القرآن الكريم ذلك مثلما تعهد بها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وأوصلها إلى البشرية.

بهذا نعرف جوهر المقصود من الآية الشريفة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (49) والآية المباركة (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (50)، فبقاء الرسائل السماوية من أجل تحقق هدفها في الناس أمر حتمي، ومن أجل إظهار هذا الهدف وإقامته في الأرض، فإن الرسل والأنبياء والأئمة لا ينقطعون عن الناس ولا يفارقون حياتهم، كيفما كانوا وأينما كانوا، ولا يعني عدم التزام الناس بأوامر الرسل والهداة، أنّهم لا يقومون فيهم ولا تسري قوة الكلمة الإلهية بين البشر، بل على العكس، لأن نصرة الحق بأية طريقة كانت هي تلبية لغاية العدالة، وهي تعبير عن سرّيات هذا النور.

وهنا نقف هنيئة عند جملة (وخلف فينا راية الحق) التي ترد في حديثه (عليه السلام) وروداً تام الدقة في التعبير عن استمرار الهداة، الذين يشغلون المساحة التي يهدف إليها خط الرسل، وعند التيقن من هذا الأمر أخي القارئ الكريم، سوف تنفرج أمامك سبل معرفة الفرق الجوهرية ما بين (الإمام المثل)، وما بين الزعماء والقادة الذين يملكون ويزولون، ويحكمون ويمضون، وليس لآثارهم في عقائد وقلوب الناس ما يمكن أن يدخلهم دائرة الصفوة، التي تؤدي بدورها إلى مفهوم العصمة، والعصمة شأن لا يكتسب اكتساب المعرفة والدراية، إنما خصيصة تدخل في دائرة معرفة الله سبحانه لأولئك الذين اختارهم رسلاً وأئمة، وما هؤلاء سوى بشر رفعهم عن حجب الظلمات وأيدهم بنوره وكلماته.

عند هذه النقطة تنفرط كلمات الإمام علي (عليه السلام) عن سبحة النور، فيفتح أفقاً من آفاق الفيض الرسالي على الذين رقت نفوسهم، وشفّت عن جوهر فطرتها، ويخاطب قانلاً:

(فطوبى لذي قلب سليم، أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصرة، وطاعة هاد أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة، وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق، وهدى نهج السبيل) (51).

القسم الثاني: الطريق إلى علي هو القرآن والنبي

والذي يجعل أمر الهداة منقطعاً إلى الله سبحانه، إضافة إلى ما أوردناه جميعاً، هو بالمقام الأول ما حدث به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمر به - والذي لا تنبغي المواربة فيه أو المحاكمة - هو أن كلامه صفو التنزيل، أي: أن كل تقرير أو أمر النبي (صلى الله عليه وآله) الناس أن يأخذوه عنه هو فرض مثلما باقي العبادات، وعلة هذا قول الله سبحانه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(52)، فلا جدال في أن مصدر أوامر وتعليمات الرسول (صلى الله عليه وآله) هي من عند الله، والقرآن الكريم مليء بتوكيد هذا ولا حاجة بنا لأن نسرده الكلمات الإلهية التي ترفع شأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتجعل من كلماته وحياً يوحى، حتى نحتاج إلى تثبيت أن كلامه هو محض نور، وأن مخالفته هي ليست فقط معصية، وإنما إبطال للأعمال أيضاً إن كان هذا المخالف ينظر إلى نفسه على أنه ممن يتقربون إلى الله بعمل أو عبادة، وعلة هذا قول الله سبحانه (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم)(53).

وفي الربط الناجز بين طاعة الله سبحانه، وبين طاعة رسوله عليه وعلى آله أطيب الصلوات، يمكن للمتأمل أن يلتقي مع علي (عليه السلام) ابتداءً قبل أن ينطلق إلى التفصيلات، وعند هذا الالتقاء سوف يجري النظر إلى متابعة الحاجة إليه، بعد أن يغادر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) إلى دار مقره، وفيه (عليه السلام) سوف يعرف متابعة طريق الله تعالى مما وراءه، أولئك الهداة الذين سوف يجسدون نور الله من بعد محمد (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام)، لأن الطريق إلى الله بعد ذلك سوف لن يكون في مامن بالنسبة للسالك عندما يولي وجهه قبلة سواها، أي سوى التي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيها أنها سفينة النجاة من ركبها نجي ومن تركها غرق(54).

وقد فرغنا من أن النور والظلمة هما عنوانا البصيرة والعماء، ووقفنا على أن الإنسان غير الداخل في نور الله مارق عن راية حقه، وأن لهذه الراية حملة، وأن هؤلاء الحملة هم أفرع شجرة النبوة، ومصابيح هذا النور، أئمة الناس وملادهم ومنجاهم من أي سوء، وإذا بُنيت مقاييس دخول الجنة وقبول الطاعة عند الله سبحانه على طاعته وطاعة رسوله، فإن كل مخالفة إيلاج في الظلمة، مفاد قوله سبحانه: (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)(55).

فإذا لجأنا إلى أوامر الله في طاعة نبيه الهادي الأعظم للبشرية جمعاء، ثم نظرنا إلى وصايا رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أئمة الهدى من ورائه، نكون قد وضعنا نصب أعيننا هنا السؤال التالي: ما معنى (ما آتاكم الرسول فخذوه)(56) ؟ وقبل الإجابة نقول: إن شرط الطاعة العمل، أي لا يكفي أن يقر المرء بقلبه بأنه موافق لما يقوله هاديه، نبيه وإمامه، وإنما ينبغي تأدية العمل بهذه المعرفة، فالعلم بالشيء بغير القيام به يبقى في حيز القصور ولا يكون له مجال تصديق ما لم يبادر إلى العمل به.

وعدم طاعة الله ورسوله نتيجتها بحسب القوانين القرآنية، هي ما ينحصر في كلامه عزّ وجلّ في هذه الآية: (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)، ويوازيها القبول والطاعة والعمل بحسب هذا القانون القرآني إثر قوله جلّ جلاله: (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً)(57).

فالله سبحانه الذي اختار أنبياءه ورسوله، اختار أئمة الناس إليه معهم، وكلف كل نبيّ ورسول أبلغ عن رسالته أن يشير إلى الذين يمثلون امتداد هذه الرسالة، وليس من سبيل إلى ذلك بغير أن يتولى سبحانه هذا الأمر.

والمعروف أن الناس تسعى لتولي أمورها بيد الذي تراه يقدم لهم النفع الآني والمستقبلي ويرغبون بالمناصب والشهرة التي زينتها الدنيا لهم ببهاجها ومفاتها، وقد عسر على الإنسان الاتصياح للسوي، ما لم تقم عليه الحجة التي تجعله أن يتقبل هذا الاتصياح.

ولا نقصد بالانصياع هنا، هو التسليم دونما رغبة أو إرادة، لكن المعروف أن شؤون العقائد، هي شؤون في غاية التعقيد، وأن استبدال عقيدة بغيرها بالنسبة للبشر - خاصة فيما يميل باتجاه الدين - مسألة تسفك من أجلها الدماء قبل أن تقف على أقدامها، لذلك كان الله اللطيف بعباده سبحانه، قد ترك الناس على فطرة تسوقهم إلى الهداية، رغم صراعهم الذي لا يهدأ معها، إلا أن العديد من آياته عزّ وجلّ تشير إلى أنّ الرسل والدعاة المجتبيين - لهم وظيفة التذكير والتبشير وإنذار الناس بعدهم، أي بعد أن يستيقظ فيهم ملمح الاستجابة للنداء الداخلي الفطري الذي يكشف لهم حجب الظلمات، ويريهم مثلهم ورجاءهم، لا ينبغي لهم أن يغفلوا بعد ذلك عنه، فهم إن غفلوا بعد ذلك، فالوعيد والإنذار موجود بوفرة في القرآن الكريم.

وعن التذكير الذي تلهج به آيات الله سبحانه، يطيب لنا ذكر نفحة هنا، تكون في مقام الاعتراف بفضله سبحانه على الأمم، وبالشكر له لما تفضل بإرسال رحمته التي وسعت كل شيء ببعث محمد(صلى الله عليه وآله):

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(58) فالرحمة الإلهية المتجسدة بإرسال محمد(صلى الله عليه وآله) قد أفاضت على الناس ما يزيل عنهم ظلمات النسيان، أو بحسب تعبير علي(عليه السلام): "أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلْقِهِ، وَالْمَعْتَمَدَ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمَخْتَصَّ بِعُقُلِ كَرَامَاتِهِ، وَالْمُصْطَفَى لِكِرَامِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضُوحَةَ بِهِ أَشْرَاطِ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوبَ بِهِ غُرَيْبِ الْعَمَى" (59).

فإذا تبين لنا أن الله سبحانه يختار الهداة من أنبياء ورسل وأئمة، وعرفنا أنه بعد أن تقوم البيّنة على الناس في (النبويّ الرسول الإمام)، بعون الله ومساعدته للناس والرسل معاً، نقف بعد ذلك على أن الحقيقة النبوية المحمدية قد استمدت عظمتها من عظمة خالقها، فأبانت للناس طرق الوصول إلى غاياتها، وعرفتهم كيف يكون الطريق إلى النجاة من مهاوي الردى، وبعد ذلك ينتصب الحق الإلهي الذي أظهر للناس بفضل وعون الله سبحانه، فيكون العباد الذين سوف ترث الأرض والغلبة لما يقوله سبحانه.

ولدينا هنا وقفة وهي أنّ هذه المعرفة التي تنبغي للهادي على الناس، تواجه دائماً صعاباً لا تليّن مع الدهر، لأنها ضد الوسواس الشيطانية، فكلّ حق مشهد، وكلّ باطل وتد، وعلى مدار الأزمنة ما تزال مصارعات الحق والباطل بدون هوادة، من هنا كان لا بد من تذكرة باستمرار، وقد قال سبحانه لرسله أن يذكروا، فماذا يجب أن نتذكر نحن بني البشر! أنتذكر ميثاق الله الذي أخذه علينا (ألسنت بربكم)(60)؟ أم نتذكر أن الله سبحانه لما خلق آدم علّمه الأسماء كلّها، وأن أبناءه نسوها، فعليهم أن يتذكروا كيما يكفوا الظلم، ويقوم الناس بالقسط؟ أم نتذكر أن الله سبحانه أرانا الحق بتوالي الرسالات، وختمها بنبي الرحمة وأيده بأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

لعلّ القول القرآني في التذكير يشتمل على جميع هذه الأمور التي ينساها المرء، فهو بحاجة ماسة إلى هاد، لأنه سبحانه لن يرضى عن أحد في شيء سخط به على سواه، يقول الإمام علي(عليه السلام): "واعلموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم، وإنما تسيرون في إثر بين، وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم، قد كفاكم مؤونة دنياكم، وحثكم على الشكر، وافترض في ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه، فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقلبكم في قبضته، إن أسررت علمه، وإن أعلنتم كتبه... واعلموا أنه (من يتق الله يجعل له مخرجاً)(61) من الفتن، ونوراً من الظلم"(62).

على هذا تكون السنة الإلهية في الناس، أنه لا يرضى على أحد في شيء سخطه به على سواه ويقابلها عكسها، فعندما تترى الأنبياء، ويكون الهداة والأئمة في الناس بصورة مستمرة، فإن الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه وآله) بما هو المشرع باسم الله تعالى، وبما هو الإمام الأكبر للبشرية، شاعت أم أبت، وبما أنه المعبر الأسمى عن التطعّ الإنساني نحو الخلاص من

أية نقيصة واستثمار كل كمال، فإنه لم يتوان عن إعلان كلمة الله تعالى في تذكير الناس بامامهم الواقعي من بعده - ونقول الواقعي هنا في مقابل ما يمكن أن يتوهمه الناس من الزعماء الذين تمكنهم الظروف من اعتلاء منابر السلطة، ويعملون على إطفاء نور الله، بقصد أو بغير قصد، ويتصورون أنهم هم أئمتهم فينحرفون عن سبل فطرتهم ونور قلوبهم، وسبل ربهم، لذلك كان من الضروري بدهاءة أن يسمي النبي محمد الأئمة في الناس، ويمهد لهم الطرق للتعرف عليهم - فأنت أحاديثه(صلى الله عليه وآله)، بما ينطق من وحي لتعبّر عن المتجّه، وتفوت الفرص على خطوط النبيه، ومنها قوله الأكثر تعبيراً عما نحن بصدده: "ألا من كنت مولاه، فهذا علي مولاه"(63).

وفي عطف هذا النص النبوي على نصوص القرآن الكريم التي منها (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(64)، نفق على الاستنتاج التالي:

إنّ الله سبحانه هو صاحب السلطة المطلقة على عباده في جميع شؤونهم وفي مختلف ظروفهم، وليس لأحد عليه من فضل أو سلطان، وهو تعالى القاهر فوق عباده وهو ناصرهم ومخلصهم ومالك مصانرهم، بلا إشكال، وهو سبحانه يؤتي الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء، وقد تفضل ببعث الرسل من أجل إقامة الحق وإزهاق الباطل الذي أخذت الناس سبلها إليه، وقد انفرد بتولي مالكيته لكل بدون استثناء، وهو بهذا اللحاظ أفاض على نبيّه برتبة الولاية على الناس عند قوله هذا، لا لأن ذلك يضر بمصالحهم وسلوكهم، بل ليعبّر يقيناً عن الغاية من إيجادهم، وعليهم أن ترتقي معارفهم حتى تدرك هذا اليقين. وليس هذا من قبيل القهر وفرض السلطان بقوة جبروته سبحانه، وإنما عن طريق إقامة الحجة، وثباتها في قلوب الخلائق، لذلك نجد أن حب الناس لمحمد(صلى الله عليه وآله) وإيثارهم له على أنفسهم وذويهم وهجرتهم معه وإيمانهم الذي فجر في الأرض مراع الحكمة والدين، لم يكن بالدرجة الأولى منبعه الخوف منه، حاشاه، بل كانت محبته هي السائق إلى توجه المؤمنين إليه وتساعد لهجة الحب له، وانتشار دينه وذويعه في الأرض، وما يرى من محاولات لإطفاء نوره منذ بواكير دعوته، إلا وهي رجب من أعمال الشياطين، ما تزال تقوم وتقعّد جيلاً بعد آخر، لكنّها لا تقدر على طمس دافعية الحب، التي نعبر عنها بسلامة الفطرة، والتي هي في مقام النور، وكل ما سواها لا يعبر إلا عن الظلمات.

إنّ جميع هذه القران تؤكّد أمراً هاماً هو من أساسيات أبحاثنا هنا، مفاده أن الله سبحانه قد بثّ بين أنوار آيات كتابه ما يجعل المطلع يفهم أن الإمامة خصيصة يجعلها الله لنماذج يصطفيها من خلائقه ليس لأحد عليها من سلطان، ومن أجل توضيحها يجريها على السنة المبشرين، فمتلما يخبرنا رسول الله(صلى الله عليه وآله) بلقاء الله تعالى وحلاله وحرّامه ورضاه وغضبه، يخبرنا أيضاً كيف نتلمس الهدى من بعده.

ولعمري أنه لكبيرة أن يفهم أو ينتشر بين البشر شي مخالف لهذا، لأسباب عدّة أهمها، أنه رسول الله وخاتم النبيين لم يفرط في شيء من حقوق الله تعالى وحقوق الناس، كي يغمط هذا الحق ويبهمه علينا، وهو الذي أرسل رحمة للعالمين، فكيف بأصحابه، وأمتة؟!!

ودعونا ننجز نهاية القسم الثاني، في دلالة القرآن والنبي(صلى الله عليه وآله) على الإمامة المطلقة لآل البيت، وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب(عليه السلام).

بعد أن نقرأ قوله تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)(65) الذي يحسم لهم مسألة الخيار في الأمور التي هي من شأنه سبحانه، ومنها الخلق واصطفاء الأنبياء والرسل، كذلك في الأمور التي هي من مقتضيات حكمته التي لا يعلمها سواه ومن اختار من رسله، التي تشير إليها، الآية الكريمة: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)(66).

وبعد كل ما مرّ وبعد أن وصلت الأمور إلى هذه النقطة نقول: إذا كان رب العزة قد حسم الأمور التي يقضيها في مصلحة الناس لجهته وحصرها به وبرسوله محمد(صلى الله عليه وآله)، هل تجد ثمة مبرر لتبديل هذا القول أو تأويله، أو تحريره بخلاف ما يشير به هو إلى نفسه؟ وبعد ذلك كيف يمكن أن نحصل على اليقين، إن لم نتمكن من فهم هذا التصريح الإلهي فهماً كاملاً، مع أنه لا يخفى على البسيط الذي نال قسطاً من المعرفة، فضلاً عن العالم أو ذي اللب، بأن الله سبحانه قرن في قضاآت رسوله قرينة قضاآته في أمور المؤمنين والمؤمنات.

وبذلك نحصل على نتيجة أخيرة مفادها أن الله تعالى قضى لهذه الأمة أن يكون علياً(عليه السلام) إمامها الذي هو في مقام نبئها في الناس بعده، وهذه فيها خصلتان:

أولهما:

يجب أن لا نعتقد لبرهة بأن الإمام علي(عليه السلام) كان في عصر المبعث المحمدي الشريف قد خلق صدفة، حتى يفهم وكأنه غلام من عامة الناس، صادف أنه ابن عم النبي وهو في سن مبكرة من العمر، فاختره لنفسه لهذه الميزة، وأخذ على كاهله شأن تربيته وتأهيله حتى بلغ هذه الرتبة، لما في هذا الفهم من سذاجة! وممكن هذه السذاجة في أنه لو لم يكن هنالك هذا الغلام لكان سواه من فتيان قريش، وهذا غير وارد في زعمنا، لأنّ المقام الذي يشغله الرسول والنبي والإمام لا يكون صدفة، أي لا يكون انتخاب لا على التعيين، بل أن هنالك صفوة، هنالك حكمة إلهية من وراء هذه الصفوة.

ودليها: إنه جعلها في ذرية بعضها من بعض، وأكدها مراراً في القرآن الكريم، مثلما أكدتها سنة النبي الكريم، ولو لم يكن الأمر هكذا، لما لزم هذا التأكيد ولا كان هنالك مبرر لاختيار الله تعالى أشخاصاً بعينهم وإجراء ابتلائه فيهم، ثم إتمام نعمته عليهم وإعطاءهم شرف (المثال) الذي تلهج وراءه النفس الإنسانية كما تقدم. إنّما كان الإمام علي(عليه السلام) من ضمن هذه الصفوة، وهو وليد الكعبة المشرفة، وجميع الشروط التي رافقت حياته تفيد أنه لو لم يكن هو، لما كان لأحد سواه هذه المنزلة. ونحن هنا لسنا بصدد اقالة المدائح بمقدار ما نحن نعمل الحكمة والتحقق في طبيعة مسألة الإمامة، مع أنه بحسب ما أورده ابن حنبل (ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحيحة مثل ما لعلي)(67)، أو قوله: (إن ابن أبي طالب لا يقاس به أحد) (68)، والحق أنه لا يقاس به أحد، لأنه من الأهل اختارهم الله ورسوله ليقوموا في الناس، وما كان لأحد أن يختارهم، أو يخالف هذا القرار الإلهي.

وثانيهما:

في التفريق بين الإمام الذي هو هادي الناس ومخرجهم من الظلمات إلى النور بكلمات ربّه، وبين ستنى أصناف الرئاسة والزعامة التي سبقت إليها الإشارة، يجب أن نضمن بأنّ أوامر الإمام الهادي ونواهيها هي امتداد لأوامر الله ورسوله ونواهيها، وهذا الاطمئنان لا يتأتى بمجرد استعراض شجاعته أو قرابته من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أو وقوفه إلى جوار نصرته، وإن كانت جميعها تضيف اليقين إلى اليقين إذ أن الجبان، وغير الناصر لا يكونان فيمن هو إمام الناس الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وإنّما هو إمام بما يسوق الناس إلى منتهاهم الذي يتوفر لهم في سبيل النعيم بحسب الرسالات السماوية، وبهذا يجب أن تستحوذ جميع الشرائط شخصيته حتى يكون حجة الله تعالى على الناس، وعلى المتفكر في إمامة علي(عليه السلام) أن يقرأ الآن هذا الكلام له(عليه السلام):

يقول: "أيها الناس! إنني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم" (69).

هكذا تشتمل الإمامة على النبوة والرسالة، وهكذا يدفع الله الباطل بالحق، حين يقول: (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(70)، فإذا كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوتي الناس الحكمة، ويهديهم إلى جادة الصواب، ويرسم لهم سبل استمرارهم في طريق النور والهداية، بإعلان ولاية أمر الناس من بعده لعلي(عليه السلام)، فإن المؤمنين والمؤمنات هنا عند هذا القضاء النبوي المبارك، الذي هو غير منفصل عن القضاء الإلهي، ليس لهم الخيرة من أمرهم، وبالتالي يمكن أن يقال بأن التزام إمامته(عليه السلام) هو خضوع لقضاء الله ورسوله، وأن عدم الالتزام بهذا الأمر هو خروج من هذه الدائرة، وهذه النتيجة تؤيدها تصرفات ومواقف الإمام علي(عليه السلام) بين الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله).

فأهل البيت ورأسهم علي(عليه السلام)، نجرؤ هنا على القول بأن جميعهم متساوون من جهة الإمامة، فالاثني عشر إماماً الذين يتحدث لنا عنهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)، هم ولاية المؤمنين، ومن لم يتولهم لا ينقصهم في شيء من الشرف، ولا ينقص من قضاء الله ورسوله فيهم من شيء، ومن منا يستطيع أن يتخيل مجرد جولة من الخيال أنّ الله ورسوله لا يريدون بنا الخير، يكون قد أخطأ قلبه، وخرجت عن المحجة قدمه، وعليه أن يستفيق من عمّة الظلمة، ويستهدي بنور الحق ورايته، لأن الذي ينطبق من الإمامة على علي بن أبي طالب(عليه السلام)، إنّما ينطبق بذات المقدرّة على الأئمة الذين انحدروا من ولده بعده، لعلّة إخبار رسول الله(صلى الله عليه وآله) أولاً عن ذلك الناطق بلسان الحق المورث لرايته، ولعلّة انطباق المصداق عليهم من خلال استقرار سيرتهم، والتعرّف على علمهم وما أفاضوا على المؤمنين من فضائل ربّ الناس سبحانه وبركاته، وقد ترك في الناس أثرهم وعلى المحتاج إلى رحمة ربّه ونوره أن يقتفي هذا الأثر، وأن يستنهض همهة قلبه كي يدرك معنى (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)(71).

وثمة قبل الخروج من هذا المبحث السؤال التالي:

إذا كان الله سبحانه يأمرنا أن لا نخالف ما يأتي به الرسول(صلى الله عليه وآله)إلينا، ما يلتفتنا إياه وما يأمرنا به، وما ينهانا عنه، فكيف لنا أن نتعرف على جميع ما أمرنا به، وأنه كما يعلم الناس، قد نشب خلاف في تناول حديثه وروايته بين المسلمين، ابتداء من عصر وفاته عليه وعلى آله السلام!؟

ونحن محكومون بالالتزام بطاعة الله وطاعته، والذي لا نشك فيه أن الله سبحانه يخبرنا بهذه الآية، أنّه حفظ الرسول(صلى الله عليه وآله) في الناس، لذلك هو يجريها على لسان الكتاب، بمعنى أن الله لا يأمرنا بشيء ولا يكون لهذا الشيء من تحقق، فينبغي أن نفهم أنّ جميع ما أتى به الرسول إلينا متوفر بين الناس إلى قيام الساعة، وهذا المتوفر لا يحظى به بدون تدبّر وتفكّر، وهذه ليست بدعة، فإذا كان القرآن الكريم الذي هو دستور المسلم، لا يمكن إدراك كنه آياته بدون تدبّر وتفكّر، فكيف ورسول الله(صلى الله عليه وآله) مثله لا ينطق إلاّ بوحى!؟

إنّ المسألة ليست في مكان القرابة! إنّ هذه الآية الشريفة تلفت أنظارنا إلى أن ما أتانا الرسول(صلى الله عليه وآله) والذي نؤمر من قبل الله تعالى بالأخذ به، هو متوفر، لكنه يحتاج إلى تدبّر كحاجة الناس إلى تدبّر القرآن، وأنّه لم يختف كلية عن الناس، وإنّما هو في مقام النور الذي يجب أن يُخرج الإنسان بسعيه نحوه قلبه من ظلمات الضلال ويدخله في شرايح النور، هنالك سوف يلقي إمامه، الذي يسلمه تفاصيل الأخذ عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وينهاه عن منتهياته.

ويطيب لي أن أختتم هذا القسم بحديث يروى عن هاد من هداة آل محمد(صلى الله عليه وآله) يقول: (لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم، وإمام زمانه، ويردّ إليه ويسلم عليه، ويسلم له، ثم قال: كيف يعرف الآخر وهو يجهل الأول...؟)(72).



-
- 1 - الكهف: 17.
 - 2 - يونس: 62.
 - 3 - الأحزاب: 6.
 - 4 - آل عمران: 68.
 - 5 - آل عمران: 67.
 - 6 - الإسراء: 9.
 - 7 - العنكبوت: 41.
 - 8 - يونس: 35.
 - 9 - أنظر نهج البلاغة: الخطبة 99.
 - 10 - المجادلة: 21.
 - 11 - الأنبياء: 105.
 - 12 - الحديد: 25.
 - 13 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 107.
 - 14 - البقرة: 257.
 - 15 - الأعراف: 157.
 - 16 - المائدة: 15.
 - 17 - إبراهيم: 1.
 - 18 - الحديد: 9.
 - 19 - البقرة: 124.
 - 20 - الإسراء: 77.
 - 21 - المؤمنون: 44.
 - 22 - الحديد: 26.
 - 23 - الرعد: 16.
 - 24 - فاطر: 19، 20.
 - 25 - الحج: 46.
 - 26 - محمد: 24.
 - 27 - الشعراء: 193، 194.
 - 28 - الأعراف: 179.
 - 29 - الحجرات: 14.
 - 30 - المائدة: 41.
 - 31 - الرعد: 7.

- 32 - البقرة: 257.
- 33 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 1.
- 34 - علي والفلسفة الإلهية: 44.
- 35 - إبراهيم: 5.
- 36 - الأعراف: 144.
- 37 - الأعراف: 148.
- 38 - الأعراف: 150.
- 39 - مريم: 59.
- 40 - مريم: 60.
- 41 - الكهف: 17.
- 42 - آل عمران: 33.
- 43 - البقرة: 257، المائدة: 16.
- 44 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 99.
- 45 - أنظر مسند أحمد: 1/118 (950) (961) (1310).
- 46 - ترد تفصيلات هذه الحقيقة في القرآن الكريم في عدد من المواضع، راجع مثلاً سورة الحديد الآية 26.
- 47 - البقرة: 285.
- 48 - النساء: 152.
- 49 - المجادلة: 21.
- 50 - الأنبياء: 105.
- 51 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 214.
- 52 - الحشر: 7.
- 53 - محمد: 33.
- 54 - أنظر: مستدرک الحاكم: 3/361 (4778)، المعجم الأوسط للطبراني: 4/10 (5536)، وغيرها.
- 55 - الأحزاب: 36.
- 56 - الحشر: 7.
- 57 - الأحزاب: 71.
- 58 - الأنبياء: 107.
- 59 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 178، المعتم: المختار لبيان حقائق التوحيد والتنزيه، غريب الشئ: أشد سواداً، غريب العمى: أشد الضلال والظلمة.
- 60 - الأعراف: 172.
- 61 - الطلاق: 2.
- 62 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 183.

63 - أنظر مسند أحمد: 1/118 (950) (961) (1310).

64 - الأحزاب: 6.

65 - القصص: 68.

66 - الأحزاب: 36.

67 - مناقب أحمد بن حنبل، ابن الجوزي ص162 وما بعدها، طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى: 1/319، كذا الينابيع: 2/68 -

2/297

68 - المصدر نفسه: ص16.

69 - أنظر: نهج البلاغة: خطبة 182.

70 - الحشر: 7.

71 - أنظر وسائل الشيعة للحرّ العاملي: 16/246 (21475)، وورد كما في صحيح مسلم ومسند أحمد ومعجم الطبراني: (من

مات بغير إمام مات ميتة جاهلية) و(من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

72 - أنظر: الكافي للكليني: 1/180.

القسم الثالث: الطريق إلى علي بعلي

في القسمين الذين أنجزا بحثنا عن معرفته (عليه السلام) من خلال الاستنتاج والاستدلال، ومن خلال كلام الله سبحانه وكلام رسوله (صلى الله عليه وآله)، وصلنا إلى أن الله سبحانه قد أجرى في الناس سنته، وليس لأحد أن ينزع الله سنته، وقضاء رسوله قضاءهما، فما لمؤمن أو مؤمنة أن يختار.

وبذلك تبين لنا أن الرعاية الإلهية قد حفت أمة محمد (صلى الله عليه وآله) بإعلان إمامة علي (عليه السلام) في الناس، استمراراً لهدى الله تعالى وإبقائه لنوره، وأن من عمل على إطفاء هذا النور خبا وزهد في مترديات الظلمة، ومن شرح الله صدره لهداه، أخذ بناصية فواده، وساقه من حيث يستقر الإيمان في قلبه، ويرد على حبيبه المصطفى يوم لا ينفع مال ولا بنون وقلبه مشتعل رغبة وحباً وأمان، فهو على حوض المختار، يسقى مياه أهل الجنة، ويتراقص في نفسه النور فيجلب الخير لها، فقد انكشفت أساريره عن هدي محمد باعتناق الإسلام، وذاب قلبه ولعاً بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، فأثر ولاية علي (عليه السلام) في الأَرْض، فكانت راحة علي (عليه السلام) في ذلك المقام هي التي تفصل ما بينه وبين نار جهنم التي أعدّها الله للظالمي أنفسهم.

ونحن هنا سوف نقصد الطريق نحوه (عليه السلام)، من خلال كلماته التي أرسلها منذ ذلك العهد في الناس، وما تزال تسري في دياجي الظلمات تكشفها، وتضيء جنبات الكون، لكن الذي لم يمكنه الله تعالى من إدراكها لم ينل حظه من العيش معه بعد، ونسأله جلّ جلاله، أن يقيض لجميع أمة محمد (صلى الله عليه وآله) وللبشرية أن تتفتح عيونها على هديه، وتستلهم خلاصها منه، فإنه كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "لا يدخلها في باطل، ولا يخرجها من حق"، بل أنه فاتح آفاق الأنفس على كوامنها، ورافع نور الله فوق كل ظلمة بمنّ منه سبحانه، لا بسواه.

والذي يدعو إلى التأمل والتأمل في استعراض كلامه، ليس البلاغة التي يتمتع بها كما يتصور البعض، فما كان ليديره النقص (عليه السلام)، وحتى يبحث عن الكمال، فالبلاغة ليست فضيلة أو إضافة إلى إمامته، بل إنها من مقتضياتها، بذلك نحن وإن راعنا جمال أسلوبه، وأخذ بلباب أفندتنا حسن تناوله للمفردات، لكن هذه ليس بذاتها الهدف من الاستدلال عليه بكلماته، وإنما الهدف فوق ذلك، إنه استلهم نوره من أجل إزاحة ظلمات علّت الأفئدة، وكذلك استدراك طريق تراكمت فوقه غبار التزييف والتحريض، وانتضاء حق يشعل مصباحه إنفاته.

بهذا نحن نقف قليلاً مع ما يذكره عن أهل البيت الذين يدور معهم في فلك محمد (صلى الله عليه وآله) وينسج معهم على منواله، فيأخذ منهم ويعطيهم، ويتبادل معهم سرائر الكون، ويكشف للناس خبايا مستقرهم ومستودعهم، وطرائق عيشهم وسعادة أوقاتهم، مثلما يزرعهم ويردعهم عندما ينظر فيراهم على غير الجادة، لعمري كدفع الوالد ولده على اتیان حياض اللذة غير النافعة، وعدله إلى طرقات الفوز والخلود.

كفاية الإمام

من المعروف في جميع الأوضاع أن صاحب الحاجة يذهب نحو من لديه هذه الحاجة فيطلبها، وإن كانت هذه القاعدة في شؤون الدين أقل تحقّقاً، فالمعروف أن الرسل لا حاجة لهم في الناس، بل للناس حاجة إليهم، يهبطون إليهم ليبلغوهم رسالات ربهم، وكذلك الإمام، فإنه ينطلق في الناس معبراً عن حاجاتهم، رغم أنهم هم الذين في الواقع يحتاجون إليه.

وفي الكثير من الأحيان يتعرض (المثال) إلى هجمة من قبل أعداء النفس، بأي شكل من الأشكال، بقصد البغي في الناس، وإزاحة الحق وإحلال الباطل، هذه خصلة موجودة بين بني البشر غير مستنكرة، فالله سبحانه خلق الإنسان منذ آدم وفيه

خاصية الجدل، والتعبير عن الذي يريده بما لا يريد أحياناً، فقد يدعو بالخير دعاؤه بالشر، لكن هذا ليس لأنه يرغب ويريد الشر، إنما لجهل فيه، أو لعدم إعمال العقل بالشكل الأليق، أو مثلما يقولون قد يترك الأولى، أحياناً عن قصد، وأحياناً عن غيره.

فقد يجتمع الناس على إمامهم، ثم ينقلبون، وتأخذهم نوازع الشياطين ولا يدرون بعد ذلك مصيرهم، فيخطؤون ويسينون لأنفسهم، ومنهم من يتوب عن ذلك، ومنهم من تأخذه الحمية، حمية الجاهلية، فيسقط في امتحان الخلاص، ويدخل شرك الضلال.

ويوجد في كلام الإمام مثل هذا التعبير عندما يذكر الناس الذين اجمعوا على قتاله (عليه السلام) مثلما أجمعوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) (1)، لكن ثوب الإمامة الذي حباه الباري عزّ وجلّ به ينطق لسانه بقوله: "لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة" (2).

وقد آثر الناس مخالفة طبائع الحق، ليس عن قصد في الغالب، وإنما عن عدم خضوع، إمّا لكبر في النفوس، وإمّا عن مراودة الشهوات، ولو لم يكن ذلك لوجدنا الحق يجري فيهم مجرى التنفس منذ خلق الله الناس، وما من حاجة إذن لترادف المرسلين، ولا من حاجة لقيام الأنمة فيهم، لكن لما كانت الجبلية البشرية تأخذها منازعات وميولات، كان من الطبيعي أن تستغرق في ظلماتها، ما لم يردفها ربّ الناس بمن يذكرها، ويحنو عليها بالإمام، وهو الرؤوف الرحيم بكل شيء أبداع خلقه وناوله حظه في العيش، على أن يلج مدارك كماله، أو ينحاز إلى مجارات مراتب الضلال فيأوي مع من أوى إلى المصير البانس، والعيش الضنك، إلا أن يشرق نور الله في حناياه، وما من أمة أو قوم، إلا ويقوم فيها من يلتفت إليه لو استيقظ القلب، وما أن تحدث يقظته حتى يوتى الحكمة، والفضل العظيم، فيعرف إمامه، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله عندما سنل عن الحكمة التي أوتيتها لقمان، فقال: "لقد أوتي معرفة إمام زمانه" (3).

اللهم اجعل القلب لا يفتقد نورك، وامنن عليه بلطف منك، أدخله مداخل النور عن بصيرة وأبعد عنه ظلمات العمى، وتغمده بوافر منّك، واجعل له في معرفة إمامه من لدنك سبيلاً، لأنّ هذا لا ينال إذا انقطع حبل رحمتك، وغابت عن العناية به آيات فضلك، ومن يبتغ غير ذلك السبيل، فإنه لن يجد له ولياً مرشداً.

إنّ معرفة الطريق إلى عليّ (عليه السلام)، يلزمها المزيد من الانفتاح على أبواب الحكمة، ليس لغيابه أو لصعوبة معرفته، حاشاه فهو الذي لا يفارق القرآن، ولا يشتبه في أنه ميزان الفصل بين النفاق والإيمان، لقوله (عليه السلام): "أنا قسيم النار" (4)، ولقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيه: "يا عليّ لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق" (5)، وإنما لكثرة ما يعمل على اخفاء الحق، واشهار الباطل.

وكما قلنا، ذاك شيء في طبائع الناس، ولولا ذلك لما احتجنا لتكرار الرسل وتواترتهم، وقيام الهداة واستمرارهم، وهنا نقول:

إن الطريق الذي يفتح منه لنا باباً على الحق، ينقسم بحسب هذا المبحث إلى عدّة أقسام.

ونبدأ القسم الأوّل بالكيفية التي ينظر فيها الإمام عليّ (عليه السلام) إلى نفسه، وكيف ينقل لنا وسائل التعرف عليه، والتماس هداة.

وسنلج في كلماته التي حملتها إلينا الأسفار عبر التاريخ، ومنها سوف نلاحظ مشهد الحق ونعابته، ونطرق باب النور، فينفرج ما بين قلوبنا وبينه ما يجعل قلوبنا تطمئن بذكر الله تعالى، وتخشع رغبة في حنوه.

ننظر هنا إلى كلماته يخاطب فيها الناس، وهو قائم مقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعلمهم ويعظهم ويميل إليهم بارتياح ثوب النجاة من الفتن، ولا يترك مطرحاً إلا وشغله بالفاتهم إلى نور الله تعالى يقول: "والله ما أسمعكم الرسول شيئاً إلاّ وها أنا

ذا اليوم مسمعكموه... ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الأوان، وقد أعطيتم مثلها في هذا الزمان"(6).
لن يحتاج المتأمل في هذه الكلمات إلى مزيد تدبر، كي تتكشف عليه حقيقة ما يؤديه، فعلي(عليه السلام) الذي ما أقسم بالله إلا صادقاً، يقول للناس: إن المسافة التي تفصلكم عن آباءكم الذين كانوا عندما بعث الله نبيه(صلى الله عليه وآله) يغرقون في متاهات الضلال، ليست بمسافة بعيدة، "ما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد"(7)، وأن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قام فيهم، فأزاح عنهم ظلمة الضلال، وأضاء قلوبهم بنور ربه وكلماته، وانني الآن أقوم فيكم ذات المقام، وأودي رسالته، اسمعكم ما أسمع النبي آباءكم، وأكشف عن بصائرهم.

والذي يجرؤ على قول كهذا، لا يسعه أن يكون مدّعياً، وهو على رأس أمم من صحابة نبي الله(صلى الله عليه وآله)! كذلك لا يسع المدّعي أن ينفرد بإتيان الناس مذكراً ما كان عليه آباؤهم من جاهلية، ومنفراً إلى الله ورسوله بمثل ما نقرأ عن علي(عليه السلام).

لكن الإمام هنا، يؤكد الإشارة إلى أنه حامل راية الحق، التي تتوارثها الأنبياء والرسل وعند غيابهم تكون في يد الأئمة الهداة، والإمام علي(عليه السلام) يبين دائماً بأن آل محمد في زمن الإسلام هم حملة هذه الراية، فيقول:

"لا يقاس بآل محمد(عليهم السلام) من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة"(8).

دعونا ننظر هنا في الكيفية التي يعرف فيها الإمام علي(عليه السلام) بآل محمد، وبالطبع هو قطبهم، إنه يشير إلى إمامتهم للناس، ليس تلميحاً، بل مثلما قال فيهم رسول الله(صلى الله عليه وآله) تصريحاً "لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه"، الله سبحانه يتفضل على الناس بأنه أنعم عليهم بمحمد(صلى الله عليه وآله)، ويجري فضله في آل رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وإن الذي يتحدث هو الإمام كاشفاً عن القلوب أغطيتها، يرسل كلامه في الناس، منذ تحدث إلى يوم يبعثون وقد حفظ الله كلامه هنا للناس، على الرغم من أن الأزمنة تدور على الدول، ولما لم تكن للإمام دولة، بل كانت روح الهداية، فقد انزاحت الدول وبقي نور الله يسري في فلول الأزمنة.

وهنا مكن الفرق، بين الإمامة وأصناف الزعامات التي تحدثت عنها في أماكن مختلفة في أنحاء هذا الكتاب.

والذي يجاهر بإمامته للناس وفق هذا المفهوم، ليس أحد غير محمول عليه تخليصهم من فتن الدنيا، بل على كاهله حمل هذا، لأنه هو المعبر عياناً عن حقيقته.

ونعتقد أن الإمام في سياق تناوله للتعريف بنفسه، لا يقول هذا إلا إذا كان للحديث موجب، وهذا الموجب هو لكل من يأتي من بعد هؤلاء القوم الذين لا يجهلون، وإنما تقودهم عنه أمور الدنيا التي تحول بين المرء وربه.

فلا يظن أحد أن الإمام علي(عليه السلام) يتحدث في تينك الأزمنة، كي يقف الناس على مكانته، وإنما يتحدث كي تسير في الناس حقيقته، التي يريد أهل الضلال اطفاء نور الله تعالى بأفواههم، إذ عملوا على اخفائها، لكن الله سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره، فينطق أثر ذلك(عليه السلام)، دافعاً الشبهات مقيماً للحق، يقول:

"فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فنة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقاندها وسانقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً، ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرانه الأمور، وحواذب الخطوب"(9).

إن الذي يدعو الإنسان إلى التفكر في كلام الإمام، ليس البحث عن أحقيته بالخلافة مثلما يظن، أو عند انزاله الزعيم في الناس، لكن الأمر مختلف، فالذي أنجزه محمد(صلى الله عليه وآله) من تركيز وترسيخ لمجمل رسالات الله تعالى، واجتماع الأديان كلها

دائرة الدين الإسلامي، وإقامة البيئته التي ختم الله تعالى فيها جميع الأديان، فهي التي تلفت نظر الإنسان إلى الذي يبوح به الإمام علي(عليه السلام).

فهو العارف بكل شيء "علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب"(10) وهو الذي عرف خفايا الكرامات التي استودعها الله أهلها، فهو من رسول الله(صلى الله عليه وآله) "كالصنو من الصنو، والذراع من العضد"(11). وهو العارف الذي لا يخفي معرفته عن مأموميه بخاصة في شؤون حياتهم، وإذا رغب الإنسان منا في الإطلاع على الكيفية التي يتعامل فيها الإمام علي(عليه السلام) مع الحياة الدنيا، فإنه سوف يقف على كون من المعارف لا تظال أطرافه همة، ولا تصله عزيمة.

لننظر هنا على سبيل المثال طريقته(عليه السلام) في التعامل مع الدنيا، وفي تعليم الناس الكيفية التي تنبغي فيها التعامل معها.

علي(عليه السلام) والكشف عن الحياة الدنيا

ما نزال نجري تأملاتنا في ما أعطانا أمير المؤمنين من مفاتيح الدخول إلى عوالم هديه والتعرف عليه.

فإذا سأل سائل عن الإكثار من متابعة كلماته.

فإن الإجابة تكون: إنّه بها وبكلام نبينا ووحى ربنا نعرف الطريق إلى نور الله، ونعرف الطريق إلى مصداق الإمامة التي هي المنجاة، والملاذ، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن الذي يقودنا إلى هذا الأمر، هي ألوان التقريب والتأخير في تناول أوضاع العيش، من لدن معلم رفع رسول الله(صلى الله عليه وآله) شأنه عند قوله: "أنا مدينة العلم وعلي بابها"(12)، وعلى موازين الصراط تشهد الحقيقة انسيالها، ويتأهب لها المرء في الحياة الدنيا، وهي بحسب المعلم الإمام "دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالاتها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فانتته، ومن تعد عنها وانتته، ومن أبصر بها بصرتته، ومن أبصر إليها أعمته"(13).

يحسن أن يبحث القارئ في أطراف الكتب عن سيرة علي(عليه السلام)، فهو بحاجة إلى اجراء مطابقات، حول هل كان كلامه مطابقاً لحقيقته، أم أنّه كان يعظ ولا يتعظ، فعمل من قال شيئاً وأتى بخلافه، لأنّ الكثير من الناس يقولون ما لا يفعلون، والكثير من الناس يتخذون الدين مطية، والمعرفة وسيلة، يرغبون أن تحقق لهم الأمجاد، وتقودهم إلى زعامة العباد، والحق أن الانتباه إلى سيرته قد أخذ به الكثير من الكتاب، من مظانة في كتب التاريخ والأحداث والرجال والتراجم الخ...

إنما الذي نحن بصدده هو الوصول إلى هديه بهديه، لا بما قيل عنه وفيه، بذلك تتحقق غاية من ورائها رغبة في أن يكشف الله لنا عن بصائر، إنلهمّ عليها الخطب، ونالت منها عاديات الأيام، فكان أن عبث ببعض تلقينها للناس، إلى أن صارت المقارنة بين الإمام الهادي، والزعيم الجائر أحياناً، لا تفترق إلا في ما يقال: إن هذا ألين من ذلك، أو هذا أشد وطأة من ذلك، مع سعة الفارق بينهما، واختلاف الغاية من وجودهما.

وفي متابعة هذا التبيان حول الدنيا - والدنيا هنا هي ذلك المكان الذي يشغل قلب الإنسان، ويخفي خلف لذائذه أسوأ النهايات - يقول:

"فإن الدنيا رنق مشربها، ردغ مشرعها(14)، يونق منظرها، ويوبق مخبرها، غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نافرهما، واطمان ناكرها، قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبالها، واقصدت بإسهمها، وأعلقت المرء أوهاق المنية، قائدة له إلى ضنك المضجع، ووحشة المرجع"(15).

ينتقي الإمام للناس كلمات تعبر لهم على المقدار الذي أوتوه، عن الحال في واقعها وأوامها، عن الحياة نقصد، وفيما تصير إليه، فمن أمسك بحبال الدنيا خديعته وجرى استرقاقه، وهو من موقع دوره كهاده، ينطق بواجب تخلص الإنسان من مغبة الاندحار إلى بنس المصير، وهذا لا يكون إلا لمن يخاف على المخلوقات من نهايات ليست محل سعادتها.

الدور الذي تلعبه مواعظ وتعليمات الإمام، ليس له أي منحى دنيوي في الواقع، فهو يروض أنفس البشر، من أجل بلوغها دار المستقر، وهذه غاية الرسل والأنبياء وهو الدور الذي أتى به القرآن الكريم.

فإن الله سبحانه في كتابه يرسخ فكرة استبعاد الاستئناس لهذه الحياة الدنيا، ويوجه أنظار الإنسان وقلبه إلى حياة يخلد فيها، هي سعادته إن كان من السعداء وشقاؤه إن كان من الأشقياء.

وهنا أيضاً نقف على حقيقة أخرى من حقائق معرفة الإمام، وهي أنه لا يصدر عنه بالنسبة للناس عموماً، إلا ما يفرهم من الركون إلى ما يخدع أمانيتهم، ويقودهم بهديه إلى حقيقة ما تصبوا إليه نفوسهم، وإن كانت هذه النفوس غير ملتفتة دائماً، وغير متذكرة دائماً الأمر الذي هو بلغتها ومنتهاها.

وباعتبار أن دار الدنيا فيها الزينة - والزينة هي الأشياء التي تضاف من أجل أن يختفي اللباب، وتظهر بدائله - أي أنها ليست عين الحقيقة، وكلما ازداد المرء قرباً منها ازدادت ايغالا في الابتعاد عن حقيقتها، فنال الانخداع بظاهرها.

والذي يقود إلى هذا، هو إلحاح الأنبياء والرسل والأئمة، كما والكتب السماوية على تطهير النفس من خداعها، والالتفات إلى صفاء السرانر، حتى يتمكن الهدى من طرق باب الفؤاد.

وهنا نجد كلام الإمام يهز في عمق الوجدان عن مكنن الفطرة، وإيقاظاً للعقل كي يدرك كيف أن التزود لحياة هي البقاء، هو جوهر انبثاق الإنسان إلى هذه الأرض وهذه الحياة، يقول:

"تجهزوا - رحمكم الله - فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فإن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة، لا بد من الورود عليها، والوقوف عندها فقطعوا علائق الدنيا، واستظهروا بزد التقوى" (16).

وكذلك كلامه مخاطباً الناس، ونريد أن لا يفوت القارئ أن الحياة التي قضاها الإمام علي(عليه السلام)، كانت كلها في سبيل إزاحة الناس عن الباطل ودفعاً لهم نحو الحق، امضاءً لدين الله، وإذعاناً لنهج رسوله الكريم، وأداءً لوظيفة أنتخبه الله سبحانه لها، ولا راد لإرادة الله تعالى، ولا مبدل لكلماته، وهذا يظهر بجلاء في كل مكان ينبئه فيه إلى أنه تفوه(عليه السلام) بكلمة، أو قام بفعل، أو نهى أو امر أو عاتب، أو حارب في شيء، أو ما شابه ذلك.

وفي ديمومة إعلانه في الناس عن وجوب عدم انهماكهم في حياة فانية، واقبالهم على حياة لا تزول، يقول:

"إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم" (17).

إن الدخول في عوالم الحياة الدنيا، دخولا يغلق البصر، ويمحي التعلق بحياة هي المستقر كثيراً ما يراود كلماته(عليه السلام) بل ولا تكاد تخلو من اشارة إلى حق، أو حرف عن باطل، وأن يتعامل معها تعامل الخصم، يعمل على طردها من قلوب المؤمنين، في كل سائحة فرصة ويجاوز في ذلك إلى أبعد، بل هو يعمل على اقصائها نهائياً، يقول:

"أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم" (18).

لماذا يجب أن تخرج القلوب من الدنيا يا أمير المؤمنين؟ يقول: لأنها مكنن الاختبار الذي ابتليتم به، وإنما أنتم مخلوقون لغيرها.

ننظر هنا قوله: "ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتكم".

ما الذي بقي كي يقدم الإمام مفاتيح الرحمة، ويسحب الناس إلى مدارك النور، لعل الذي بقي هو أن ننظر إليه كيف يشير إلى خاصته وأهله في عدم امسآكهم بحبائل الدنيا، ونلاحظ، أنه يخاطب الحسن(عليه السلام) ابنه مع أنه إمام، وهو كعلي(عليه السلام)، يستمد من رسول الله(صلى الله عليه وآله) نور المعرفة، ويسير على هدى كلماته، ليس تعلماً بعد نقص، وإنما مجانية لعظيم الحكمة والفضل، فالزمن لم يكن ليفصل كثيراً بينه وبين جدّه، إنما أبوه(عليه السلام) يعظه ليُسمع كل ذي لب سليم أو مريض، فلا يقال ترك أهله والتفت إلى الآخرين، مع أنه القائل في نفسه وفيهم: "بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنتم ذروة العلياء، وبنا انفجرتم(19) عن السرار"(20).

فإذا كان خطابه يتّجه نحو ولده، فإنه بما أوتي من ولايته على الناس، وهي سمه خصّه بها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في مواقف عديدة، منها قوله(صلى الله عليه وآله): "أست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه"(21).

والقول بعد هذا هو شيء من الضرب في الظلمة، لأن الإمام الذي يريق عمره لا من أجل نفسه، إنما قد ذرفها في الله تعالى، يقوم في الناس عالماً أنهم سيخوضون في صراع معه وعليه، فقد يشتبه على ذي اللب أحياناً الحق، فكيف بمن قد أغفلت الظلمة لبه، بهذا نجده عندما يحاكي الإمام الحسن(عليه السلام)، ينظر إلى كل امرئ في هذه الأرض على أنه الحسن، ليست بدعة هذه، بل هي عين الحق، تظهر عند قوله:

"يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها، وزوالها وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد لأهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال، لتعتبر بها"(22).

ننظر إلى كلماته هنا، فلا نجد أنه يفرّق في خطابه بين ولده وبين كافة أبناء الناس، فهو في كل مكان أنبا الناس عن الدنيا وحالها، لم يخصص أحداً، وواضح هنا أنه لا يغيّر دوره وطبيعته، فإذا كان قد أنبأه عن الآخرة، فإنه لم يخفها عن بقية البشر، وفي كل ساحة أثر فيها الكلام على الصمت، وسوف تجد ضيائه يشع بنور وحي الله تعالى، مع أهله ومع سواهم. وما تزال الدنيا ترتسم في أعين الناس حسنة جميلة، وهو يزيح عن أعينهم غشاوات خداعها، ترى ما الغاية التي أثر من ورائها أن يشهر ذي فقاره عليها إن كان طالب ملك، فإنه حائز عليه، وإن كان طالب لشأن آخر من شؤونها، فهو في قبضته، فلماذا يحقرها ويصغرها في عيون الناس، رجالاتاً ونساءً، عرب وغير عرب، مسلمين وسواهم، لذلك الوقت ولكل وقت. تدلنا كلماته نحو الإجابة عن هذا التساؤل عند قوله:

"إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما ورائها شيئاً"(23).

وهذا هو عين الأمر الذي توقفنا عنده عندما أجرينا الموازنة بين الأعمى والبصير، ويتبين لنا هذا أنه يشاق الدنيا، لأنها في الواقع ضده، أي إذا كانت الهداية التي فرضها الله تعالى في الناس قد تمثّلت بالكتاب والنبى والرسول والإمام، فإن هؤلاء جميعاً هم امتدادها، فهي العمى وهم البصيرة، وهي الظلمات وهم النور، ولا تستوي الظلمات ولا النور، ومن هنا نفهم ذلك السبب الرئيسي الذي جعل من علي(عليه السلام) ذاك النور الذي يصارع الظلمة، "فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص"(24).

وقد ترك رسول الله(صلى الله عليه وآله) في الناس الثقيلين، كتاب الله وأهل بيته، وقرنهم بأنهم لن يفترقا إلى يوم القيامة، كما أجمع على أن الهداية من الضلال تكمن في التمسك بهم، عند قوله(صلى الله عليه وآله): "إني تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"(25).

فتوأمة الكتاب وأهل البيت، ومساواة علي(عليه السلام) بمحمد(صلى الله عليه وآله) وفق المنطق الذي آثره رسول الله في الإفصاح عن امامته(26) وتزكية الله سبحانه لهم في آية التطهير، جميعها من أدوات ذي اللب في تفهم أن الأمر ليس في الزعامة السياسية أو غيرها، إنما هي راية حق يتوارثها الهداة منذ آدم إلى قيام الساعة.

وفي ختام نظرة الإمام إلى الدنيا، يطالعنا قوله(عليه السلام) في سياقة الناس عنها ودفعها عنهم، حيث يقول:

"فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولنّ عليكم الأمد"(27).

الحق أن الذي يؤثر حرب الدنيا بهذا المقدار من التبصّر، ويود لو أن الناس تنفتح قلوبهم على مغادرة مخادعها، بكل هذا الإصرار، وجميع هذا الإلحاح، يجعل من المتتبع له، امرءً غانصاً في مياه الرحمة، تلك رحمة الله التي مدّ الناس بها ببعث محمد(صلى الله عليه وآله) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(28).

وتتجسد هذه الرحمة أكثر ما تتجسد في خوفه على مخلوقات الله، خوف الذي كشفت له الحجب، وعرف كنه سرانرها، وميله الميل الأبوي بالغ الحنان والعطف والخوف عليهم، نلتمس طرفاً منه هنا، يقول:

"فوالله لو حننتم حنين الوأله العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جوار متبتلي الرهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظتها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه"(29).

هذا حديث خائف على أمته، قابض على رسالات ربه، مدرك لحقائق الأمور، وإلى أين تذهب بالناس دنياهم، لقد هم(عليه السلام) أن ينتزع الدنيا من قلوبهم انتزاع عدوه من مكنه، ليس له في ذلك صالح سوى أن لا يرى في عباد الله بعد أن أيدهم الله بنور نبيه الخير، وأن يستقيم أمر دين محمد(صلى الله عليه وآله)، الذي أفنى من أجل ارضاء ربّه به عمره منذ بدء خلقه حتى لقي وجهه شهيداً مخضباً بدمانه.

ودلالات خوفه على أمة محمد(صلى الله عليه وآله) وسائر الناس لا تخفى على أحد، منصف كان أم غير ذلك، إنما لا يطلب الإمام أجراً جراً أدانه مهام هداية البشرية، ومعلوم أنه يريد للناس الحياة التي بها ينعمون بأخرة لا يعيشون فيها ما وعد الله الظالمين، بل طريقاً مهدتها الرسل، وأعدّها خاتمهم وأمسك بها وصية عليهم جميعاً أفضل الصلوات من الله تعالى.

يواصل تحفيز أناس للرهبنة من مقام ربهم، لما في هذه الرهبنة من رفاه لهم، فيقول(عليه السلام):

"أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش، واسبغ عليكم المعاش، فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً، وإلى دفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود(عليه السلام)، الذي سخر له ملك الجنّ والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمته قسيّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية"(30).

إذاً لا طائل من التمسك بحبال الدنيا، فإن العبرة بالذين انصرفوا لا تخفى، أو يجب أن لا تخفى، حتى لا يستغرق الإنسان بالخدعة التي تمدد أطرافها نحوه الدنيا، وكى لا يفوت الناس واعز الهداية، فإنه يواصل عنايته بهم، مفوضاً من الله تعالى في اعلامهم ما يفوتهم، وحاملاً متابعة رسالات ربه، يعظ مثلما وعظ المرسلون الأولون، ويؤدي ما أدت الأوصياء من بعدهم، يعلم من هو وما هو، ويعلمهم أن يقفوا في هذا الأمر موقف العارف له، في كل مرة نستمع إلى خطابه الذي يؤكد أنه ليس من العاديين في الناس، أو من عامة الخطباء أو الساسة، إنما تولى منصب الهداية لا عن ملك انتزعه، ولا عن دولة أقامها فتسلط بالسيف على رقاب الناس، إنما بالهداية الإلهية المحمدية.

نلحظ كلماته هنا في تبليغ واجبه، والإعلان عن حقيقته، يقول:

"إني قد بثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بهم أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم"(31).

وفي هذا القول ما يجعل القلب يجول ببصره أنحاء مفرداته، فيستمع إلى روح الشفقة التي يحملها، وتقل المهمة التي يقوم بها. لكن الناس كعادتهم مع كل نبي أو هاد، يسومونه غاية التعب، ولا يشفقون على كينونته، رغم عدم احتياجه لهذا، لكن (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(32).

يتابع قانلاً(عليه السلام): "وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم بالزواج فلم تستوسقوا"(33).

والسبيل التي اجترحها الإمام في إعادة بناء النفس الإنسانية، هي على تنوعها وكثرتها فيما يظهر من كلامه، لم تكن لتردع الناس عن التعلق بالدنيا واثيان حياض الآخرة، والذي يشفع في ذلك كلامه هنا وفي مواطن عديدة، أنه بادرهم القول والفعل والنصيحة والمنحة والعطية، مثلما بادرهم التهديد والتأديب والوعظ، لكن أكثرهم لم يستقيموا، ولم يتخذوا الدنيا مثلما صورها لهم، حيث قال: "أيها الناس، إن الدنيا تغرّ المؤمن لها والمخذل إليها، ولا تنفس بمن نافس فيها(34)، وتغلب من غلب عليها"(35).

بجميع ما حوت كلمات علي بن أبي طالب(عليه السلام) من عظيم الموعظة، ومسلك التربية، وقوة الفؤاد، وشدة الخوف على العباد، نعرف أن به يعرف وبرسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولا يعرف بسواهما، اللهم إلا في امتداده في آل بيت النبوة، وهو بحسب ما يرد في كلامه قد اتخذ للناس "الأمثال الصائبة، والمواعظ الشافية، لكن لو صادفت قلوباً زاكية، واسماعاً واعية، وآراء عازمة، والباباً حازمة"، وهو الذي يقين من ربه كما قال(36).

ويصل الإمام علي(عليه السلام) مع الناس في شأن الدنيا، أبعد ما وصل إليه الهداة، من تحذير من ساقهم بعصاه فاطاعوها. يقول: "قد تزيّنت بغرورها، وغرّت بزینتها، دارها هانت على ربّها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوا بمرّها، لم يصفها الله لأوليائه، ولم يرضن بها على أعدائه، خيرها زهيد، وشرها عتيد، وجمعها ينفذ، وملكها يسلب، وعامرها يخرّب، فما خير دار تنقض نقض البناء، وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع انقطاع السير"(37).

في موازاة حبه للناس ورجائه خلاصهم من فتنة الحياة الدنيا، ودخولهم حظيرة الحق، وامتناعهم وصرْفهم عن مسارب السوء، تقف هيبة الإمامة ناصعة النور لمن ألقى السمع وهو شهيد، فينفرط من عقد لؤلؤها كلم يمشي مع الناس منذ بدء خلقهم، حتى منتهيات آجالهم، وما يزال يعرض في الدنيا كضد لها، لا يمكن الاستفادة من مروره بها إلا كمن يرتشف قطراً من الماء في طريق طويل السفر، قليل الزاد، يحضر قلوب الناس في قوله:

"قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة"(38).

ترى لماذا كل هذا الشغف بتخليص الناس من الدنيا، لأنّه عالم بمصائر الناس، متيقّن من ربّ عبده عن بصيرة، واحيا حياته على سبيل مرضاته، وأحبّ أن يلتذّ الناس بنعمة القرب منه، وأبغض أن يسومهم باريهم سوء العذاب بما كسبت أيديهم، فأشفق وأرفق، وعلم وهدى، وقد حدّرهم الدنيا بقوله: "احذركم الدنيا، فإنها منزل قُلعة، وليست بدار نُجعة"(39).

ثم يواصل حضّه لهم على ذكر منتهاهم ما تيسر له ذلك، يقول:

"أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت يُبكي، وآخر يعزّي، وصرّيع مبتلى، وعاند يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغصّ الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا بالله على قضاء واجب حقّه"(40).

ويندر أن تنقلت من بين أيدي المتابع لعطاء الإمام علي(عليه السلام) في الناس، قولاً أو فعلاً أو حقاً يراه أهل له، ذلك لأنه كما تقدم لا يرجو لهم إلا حسن النهاية، وجمال المناب، إنه يذرف جميع هذا العمر منذ البداية حتى الختام، وهو سائر في الأرض

يرغب في ارشاد عباد الله إلى الله تعالى.

ولما كانت الدنيا هي المعبر الأوسع عن الشهوات والخداع وقصر الآمال والاستغراق فيما لا تنفع معه الخاتمة نافعة، رأينا يعرف بنفسه عن نفسه في تنصيب إمامته، في القضاء على مؤامرات الدنيا في قلوب الناس، ولعمرك متى ما انصرفت الدنيا بهذا المعنى عن القلب، يكون الإنسان قد بلغ غاية فطرته، وتعلق بحبل نور امامه، ووصل حبال هذا النور، بمواطن حب المعشوق والأكمل والأعظم الذي تزحف نحوه البصيرة، وترغب إليه الذات.

هكذا كانت الدنيا هي الرمز الذي أعلن عليه الإمام الحرب، وأن كل حرب قام بها، إنما ينبغي أن تنصرف هذا المنصرف، وأن كل وصية أوصى بها، وكل بادرة خير للبشرية بادرها، فإنما تنطلق من ازاحة حجب الظلام الذي يمنع نور الله تعالى من اختراق قلب المؤمن، وكان بذلك لمن يبصر عيناً، ولن يسمع أذنأً، ولمن يعشق فؤاداً، وصارت بعد ذلك دلالة عليه، ذاته في هذا المقام، ولا يحتاج بعدئذ لمن يوصف له الرتب، ويحاول ازاحة التسميات والصاقها به، الإمام الملاذ، هو المثال بهذا المعنى، الذي يعلم كل شيء، ويذهب في الناس جميعاً مذاهب الخير التي تعم عليهم، وإن كان ذلك يحتاج إلى قرابين كبيرة وعظيمة، وإن كانت نفسه هي قربانه إلى باريه.

هكذا يصل السالك إلى طريق علي(عليه السلام) بعلي(عليه السلام) في جهة الدنيا، وثمة طرق تناولها كي يقيم فيها الحجة على الناس، ويخلص قلبه لله تعالى، يلقاه مطمئناً إن أدى ما بعث من أجله منها ما قاله الله ورسوله، وتنتظر في طريق معرفتنا امامنا كيف أنطق ربه لسانه في البوح بمكنونات رحمته التي اختزنها قلبه، مثلما ننظر مبادرته في القول بنبي الله الأكرم محمد(صلى الله عليه وآله).

الطريق إلى علي(عليه السلام) من قوله برسول الله (صلى الله عليه وآله)

كانت محطتنا في ايضاحه(عليه السلام) حقيقة الدنيا على قصرها ترغب في اطلاع الفؤاد على من وكيف وما هو الإمام، في مقابل مخلوقات الله تعالى، والذي يصرف أدنى جهده في الاطلاع على تعليماته في شؤون الدنيا، سوف يجد أنه بذل من أجل ايضاحات خفاياها، معظم جهده، في مقابل بقية هديه، لأنها تعتبر المسرح الذي تجري عليه أحداث الإنسان وما لها من حبال تربط بها على قلبه، فكان منادياً فذاً في الانتباه إلى مساوئها، والنظر فيما يمكن أن يؤخذ من محاسنها.

ونحن إذ نرصد عملنا في هذا الفصل من أجل معرفة الطريق إليه، نوقظ الغافل من غفلته ونرجو أن يدخل معنا مضمار إمامته من بوابة معرفته برسول الله(صلى الله عليه وآله)، وفق ما انتهجه لنا علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ولا شك أن ما في الناس من يجهل أن محمداً(صلى الله عليه وآله)رسول الله، لكن الحقيقة المحمدية أمر آخر هو غير مظاهر آياتها، ولسنا هنا بصدد فلسفة الحقيقة هذه، إنما نسير على خطى نرى أنها من الطريق التي تؤدي بنا خارج نفق الظلمات، وتوصلنا نحو ساحات نور الإمامة والنبوة في عليّ ومحمد (عليهما أفضل صلوات الله وسلامه).

وغير خاف على الناس مدى تعلّق عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) برسول الله محمد(صلى الله عليه وآله)، لكن الذي قد يكون أكثر اضاءة وأعلى أنواراً، هو تحري هذا التعلق في بعض أقواله(عليه السلام)، ويندر أن تجد في كلام الناس ما هو أدلّ على لصوقه به، من جهة نبوته تارة، ومن جهة حقيقته الإنسانية تارة أخرى.

كما قد يتجلى بذلك العمق المرجو من الدنو، ففي ما تقدّم من نظرية الإمامة تلمسنا أوجه الرغائب الحقّة وفق ما فطر الله الناس عليه، وكان من منافع ذلك والله أعلم أن يلفت الانتباه نحو أمور أكثر كلية وشمولية، بل لعلها أكثر قرباً من حقيقة الإمامة، وإذا كان لا بدّ لهذا التصوّر من مصداق خارجي، كان لا بدّ لنا من تحري هذا البعد المنطقي.

وتوصلت بنا السبل إلى أن البشرية تقطع بوجود أنموذج هو غاية رجانها الإنساني، وهذا الأنموذج دلت عليه كتابات الناس منذ القديم، واعتقاداتهم، فهو ليس بدعة، وإنما بات بمنزلة اليقين لدينا بعد أن اختلطنا ببعض المعارف في علم النفس، وبعد أن أجرينا جملة من التحليلات التي تلزم من أجل إبراز هذا الأمر وإظهاره من مظاهر الغياب، إلى مرايا الحضور، وبعد أن وصفت لنا آيات الله سبحانه المصطفين من رجاله، والموظفين لديه في إبلاغ الناس عنه، وتحميلهم الأمانات التي تسير في الناس بالقسط، تدارسنا حياتهم، وبالنظر إلى أن هذا الكتاب يمهّد طريقاً نحو طريق، فإنه اقتصر على جزء من حضور الإمامة، وكان بذلك المشهد العلوي المقدّس، هو فاتحة هذا الأمر.

والذي يرسي دعائم التصديق في الاتجاهات جميعها، أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) رجل اختصه رسول الله (صلى الله عليه وآله) لنفسه مثلما اختص الله أنبيائه لنفسه، كما أدركنا كيف أن علي (عليه السلام) أيضاً أفنى نفسه فدأءً لمحمد (صلى الله عليه وآله)، فانسجمت بذلك نفسيهما، وهو القائل فيه: "عليّ مني وأنا منه ولا يؤدّي عني إلاّ عليّ" (41)، وسبق أن قلنا: إنّ هذا ليس من أجل إبراز الفضائل، إنما هو من أجل إجلاء الحق، والتعرف على قائد النفس إلى فطرتها، ومذكرها بأي ربها.

بذلك يمكن أن نلتقط إحياءات كلماته عندما يأخذ في القول حول المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله) فغند تعليقه عن الكيفية التي تواترت فيها الرسالة والنبوة إلى محمد (صلى الله عليه وآله)، يقول في وصف الأنبياء: "فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرّمهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلّما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد (صلى الله عليه وآله) فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمره لا تتال، فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، وسراج لمع ضوؤه، وشهاب ساطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل" (42).

فإذا تأملنا في كلمات هذا التعريف بمحمد (صلى الله عليه وآله) من قبله (عليه السلام)، رأينا أن لهذا التوصيف أبعاد شتى، وإذا أخذنا مثلاً جملة: (الشجرة التي صدع منها أنبيائه)، أو جملة: (هو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى)، أو تلقفنا قوله: (سراج لمع ضوؤه، وشهاب ساطع نوره)، سوف نجد استقراراً لمكين الحبّ في عمق نفسه له، فمن ذا الذي أفرد نفسه للدفاع عنه، منذ ليلة الهجرة حتى لحظة التحاقه بباريه سبحانه.

إنّ في هذه الكلمات توسع، فالذي آمن برسالة محمد (صلى الله عليه وآله) ليس شخص عادي شأنه شأن من آمن من الآخرين، وعلة هذا أن يراه يتقلّب في أصلاب الأنبياء، ولا يخالط طهره شحوب أو رياء، فهو من هذه الجهة ليس فقط مطمئناً للنبوة اطمئنان من قامت عليه الحجة فدخل في دين الله، بل يظهر أن يعرف كنه النبوة، ويعرف تمام القانم بها لا عن إعمال عقل، وإنما عن بصيرة نبعث من ذاته، فتراه يصفه بأنه إمام من اتقى، ثم في مكان آخر يعرف الناس بأنه (بلغ الرسالة صادقاً بها، وحمل على المحجة دالاً عليها، وأقام أعلام الإهداء، ومنار البيضاء" (43).

فهو في جميع الأحوال أخذ من الله، معطي إلى عباده كوسيط ينقل وحيه، ولكن ليس هذا الوسيط من الأمر في غياب عن الاندماج في أصله، بل مندمج فيه، ليس دالاً عليه فحسب، بل تكاد تكون النبوة هي الشيء الوحيد الذي عبّر به عن محمد (صلى الله عليه وآله) مع أن محمد (صلى الله عليه وآله) بشر، لكن ثمة ذلك الفارق الذي يفصل بين الإنسان مثلاً والعمل الذي يقوم به، فلنقل أن فلاناً صانع سفن، فإن الصنعة شيء يضاف إلى الإنسان، ولا يعبر عن حقيقته، وبمعنى آخر فإن كل أولي الوظائف الذين يقومون بأداء أعمالهم، تنفصل العمال عنهم إنسانياً، أي من حيث هم بشر من جهة، ومن حيث أنهم يمارسون الأعمال من جهة ثانية.

بينما عندما نتأمل في توصيف علي(عليه السلام) لمحمد(صلى الله عليه وآله)، فإننا نكاد نتلمس كلاماً في أعماق الكلام، يدل بشكل غير بعيد المنال، على أن ثمة دمج تام بين محمد(صلى الله عليه وآله) النبي الرسول وبين النبوة والرسالة، هذا مثلاً عند قوله(عليه السلام): "قد صُرُفت نحوه أفئدة الأبرار، وتثبت إليه أزيمة الأبصار"(44).

سبق أن قلنا أن الغاية من إيفاد الرسل بحسب الآي الكريم، هي أن يقوم الناس بالقسط، هذا من جهة سلامة عيش الناس في الدار الدنيا، وهم عليها لمكافؤون، ولكن هنالك في عمق اللحظة البشرية عمق الحقيقة، ثمة ضوء الحق الذي تنجذب نحوه الأفئدة، وهي هنا جوهر، كينونه، ليست وظيفة، فالذي تنصرف إليه الأفئدة بذاته أمر يتعلّق الأمر به، لكن الذي تنصرف إليه الأبصار، فإنّه جوهر نبوة، جوهر صفوة إلهية، بذلك تكون النبوة إحدى ملكاته التي تعبر عنه، وإن كان هو الذي في الواقع يعبر عنها، ومن يكون ميلان الأبصار بكليتها نحوه، معناه أنه ملاذ كل مخلوق، عندما ينكشف عنه حجاب الظلمة أو ينزل منازل الأبرار، ونجد أن علي(عليه السلام) عندما يتحدث عن رفقة برسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: "أنا من رسول الله كالصنو من الصنو"(45) ويدلنا على نفسه بطرائق إيضاحه للحقيقة المحمدية، فهو في كل مرة يأتي فيها على ذكره(عليه السلام)، يكشف حجاباً من الحجب التي لا يدركها عامة الناس، ويحتاج معها المرء إلى هاد يسوس قلبه إلى إمامه الذي هو وإياه "كالصنو من صنوه" فيفرج مفردة تلو أخرى، فنراه عندما يبثد الصلاة على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، تارة يقدم صفة من صفاته، وأخرى يظهر اداءً من أداءاته وفي غير مكان ينصرف لتقديس حقيقته.

وننظر هنا مثلاً قوله فيه أنه(صلى الله عليه وآله) "الموضحة به أشرط الهدى، والمجلو به غريب العمى"(46)، والناظر إلى هذا القول، يحتاج إلى دراية ممكن الغاية من إيراده، فهذه ليست صفة من صفات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أو عملاً من أعماله، إنما هي حقيقة من حقائقه، فيه أي (بذاته بمعناه) تنكشف دلالات وعلاقات الهدى، وبه أيضاً بما هو هو، تنكشف ضلالات الظلمة، فيخرج القلب من العمى إلى البصيرة.

وهذا مثل قوله(عليه السلام) في إظهار حقيقة آل محمد(عليهم السلام) عند ذكره "بنا اهتديتم في الظلماء"(47)، وهذا يشير إلى حقيقة النور الذي تكرر فيهم، فالخروج من الظلمة كما سلف والدخول في النور يستلزم الانكشاف على الإمام، وتهافت الأفئدة نحوه، لذلك نجد الذي يخرج عن مدارات أنواره، إنما هو ذلك الإنسان الذي لم يعمر الله قلبه، وإن هو فعل لكان قد بلغ الإقبال بكليته عليه، وكان ممن أحباب الحكمة، ولا غرابة في قوله(عليه السلام)، ومشابهته التامة بينه وبين رسول الله، سوى في تنزيل القرآن، فقد أورد في مكان آخر ما نصه في سبيل إيضاح حقيقته للناس قوله: "إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينه، وأحلام رزينة"(48).

وفي عطف هذا القول على ما قاله رسول الله(صلى الله عليه وآله) في علي(عليه السلام): "علي مني وأنا من علي" نجد أن هذا التلازم بين محمد وعلي وآل البيت(عليهم السلام)، هو تلازم في الكينونة في الماهية والذات، الأمر الذي يجعلنا نقر بأن الإمامة في الناس هنا أيضاً قد انكشفت عن وحدة كما قدمنا بين رسل الله، مستمرة متناقلة غير مفرقة فيما بين واحد منهم والآخر، ولهذه الاستمرارية أعلام يظهرون فيما بين الزمن والآخر، ولدى كل واحد منهم على السابق واللاحق.

يقول علي(عليه السلام): "كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمّرت مع أولهم إلى آخرهم"(49)، ويقول في مكان آخر "أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم"(50)، فهو في مقولته الأولى يدلي بأنه جاز على معارف من سبق ومن لاحق، ويؤكدنا غير مرة، يقول هنا مثلاً: "اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لنلا تبطل حجج الله وبيئاته"(51)، ثم ليست هذا فحسب، بل يترك الناس إلى الصدوع بأمر هذا الفهم للإمام، ويكفي الحائق أن يتأمل قوله وهو يشير إلى صدره قائلاً: "إن ههنا لعلماً جمّاً، لو أصبت له حملة"(52).

والذي يُستنتج مما تقدم، إنّ علياً وآل بيت رسول الله جميعاً ورسول الله (صلى الله عليه وآله) من جوهر واحد، وإن أمر هذا الجوهر صعب، بل شديد الصعوبة، لذلك لا يجد الإمام فيمن كان يغشاهم نوره، من يتمكّن من تلقّي المزيد من معرفته، كما أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كرّر وصيته للناس في النظر في كيفية حفظهم لأهل بيته، فهو يعلم أن القوم لا يعون مغاهم (53).

وفي العودة إلى تعريف عليّ (عليه السلام) الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله) نتابع طريقه في الكشف عن الحقيقة المحمدية، وهو في هذه المرة يشير إلى ما حمّله الله نبيّه من أمانة تؤدّي في الناس، يقول: "أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً" (54) في هذه تجمل الأنبياء لديه (عليه السلام)، فهو في مكان آخر من كلامه، يقول: "واصطفى سبحانه من ولده أنبياء - أي آدم - أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقّه، واتخذوا الأنداد معه... وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ" (55).

لعل هذا عمل من أعمال الأنبياء، وكما أشرنا قبلاً فإن ثمة مراتب يبوح بالتعريف فيها الإمام، تارة تظهر الحقيقة بما هي جوهر، وتارة تصدر لتعرف أو تشير إلى أداء من أداءاتها، أو صفة من صفاتها، فهو هنا يعبر عن صفة أكثر من كونها كنه أو ذات، ونلاحظ مرادة الكلمة للمعنى عندما يريد لها أن تشير إلى صفة كيف تندرج إلى عالم الصفات، وعندما يستدرجها كي تعبّر عن الحقيقة، كيف ترتفع معه إلى مصافها، وفي تعبير منه عن المكان الذي يضع فيه محمد (صلى الله عليه وآله) أمانته، يقول في آل النبي (عليهم السلام) "هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، ومونل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرانصه" (56).

وفي انتقال إلى موضع يذكر فيه النبي بقوله: "اجعل شرانف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفتاح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيّشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل" (57).

يلعب اظهار نور محمد (صلى الله عليه وآله) في حياة عليّ (عليه السلام) الدور الأكثر حسماً، والأشد وضوحاً لسببين فيما نرى رئيسيين:

الأول: يفهم من اجمال مواقفه وكلماته (عليه السلام) بأن الناس قد ذهبوا بعيداً في التغيير في البناء النفسي الذي رسخ معالمه وابتدأ انشائه النبي (صلى الله عليه وآله)، وقد يلاحظ المتابع لمواقفه وآرانه وخطابه أنه يلهج وراء إعادة المستوى النفسي الإيماني للبشر كافة، وكان شيئاً مخالفاً جداً لما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) قد صار في حياة الناس شأناً اعتيادياً، والذي يدركه الإمام بالقطع لا قدرة لأحد على ادراكه، فهو كرسول الله (صلى الله عليه وآله) (أولى بالمؤمنين من أنفسهم) لخصيصة الإقامة جوهرياً، والتي يلزم منها بالضرورة كون هذا الإمام شاملاً علمه، تامة معارفه، لا يعلمه أحد، ولا يشعر أحد بأنه أشد منه بأساً في أي شأن من شؤون الدنيا والآخرة، وأنه بناءً على ما قدمت لنا أبحاث نظرية الإمامة، فهو كامل العصمة، وعلته أن الله سبحانه اصطفاه، مثلما برهنا في المكان الذي ورد فيه معنى العصمة بالإجمال.

إذن، فالناس مفارقة للدين الذي صرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عمره من أجل إعلاء شأنه، بحسب ما يفهم من كلام الإمام، وتأخذ مثالا على ذلك هذا المقطع من خطابه لأصحابه، يقول:

"وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون! وكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكنتم الظلمة من منزلتكم" (58).

فالملاحظ في معظم كلماته (عليه السلام) أن الناس قد صرفتهم الدنيا عما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) أو معظمهم، فبذل جهده في إعادة هذا الأمر إلى نصابه، وكان بذلك يعبر عندما يريد الدخول في اعادته، أي أنه كان يحضر ذكر الرسول الكريم، ويجلي صدور الناس بتعداد مزاياه تارة، واطهار حقيقته أخرى، واعادة سيرته مرات، بهدف توثيق العلاقات ما بينه وبين الناس، في مواجهة نكوصات وانتكاس الناكسين. هذا الأمر الأول.

والأمر الثاني: يمكن التعرف إليه أيضاً من خلال سيرته في الناس، وهو التدليل على الإمام الهادي، الإمام (المثال)، في مواجهة زيغ قلوب الناس نحو أشخاص لا يرى فيهم ابتداءً أهلية القيادة، فضلاً عن أن منصب الإمامة لا يطالونه بحال، ليس فقط لقصر قوامهم، وإنما لما هو من تدبير الله ورسوله، أعني من الشؤون التي يرتبها الله ورسوله في الناس، ويصعب على الناس التدخل فيها، وإن تدخلوا من غير حق، قام صاحب الأمر الواقعي بإظهار هذا التدخل، ومكافحته، حتى لا يختلط الحق بالباطل.

وهنا يشير (عليه السلام) إلى أن الله سبحانه قد بعث الرسول في الناس كي يخرجوا من ربقة الوثنية، ومن سيطرة الشيطان، وأيده بكتابه المحكم البين، حتى يتعلموا ويعلموا ربهم بعد أن جهلوه، يقول:

"وليقرؤا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إن أنكروه" (59).

ويقول (عليه السلام) في أبرز تعبير عما حواه القرآن الكريم:

"فتجلى سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته" (60).

إن تجلّى الله لعباده من خلال الكتاب الذي أنزل على محمد لهو من الكلام الذي يدلّ على أن الإمام قد خبر لبّ الحقيقة، وجاء بنا إلى جادة معرفته، من خلال ما يدل به على نبيّه وكتابه.

فقد ارتكزت كلماته (عليه السلام) حول رسول الله (صلى الله عليه وآله) على مرتكز معرفته الخاصة به، لذلك جاءت تعبيراته عنه بهذا المقدار من الدقة، وهو بعد ذلك يقول لابنه الحسن (عليه السلام) لقد كان لك في رسول الله (صلى الله عليه وآله) كاف لك من الأسوة، مستنداً على القرآن الكريم في هذا (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (61)، ويتابع وصيته لولده وهي كما ذكرنا قبلاً، أنها تمثل سعة الإمام في احتضان جميع أمة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أي لا تقف عند الإمام الحسن (عليه السلام).

يتابع قائلنا: "ودليل لك على ذم الدنيا وعيبيها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطنت لغيره أكتافها... فتأس بنبيك الأظهير (صلى الله عليه وآله)، فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيّه، والمقتص لأثره، قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفاً، اهضم أهل الدنيا كشحاً، واخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقر شيئاً فحقره، وصغر شيئاً فصغره، ولو لم يكن فينا إلاّ حبنا ما أبغض الله، وتعظيمنا ما صغر الله، لكفى به شقافاً لله" (62).

إن هذه الكلمات، هي بحسب الوثائق التاريخية، وصيته لابنه الحسن (عليه السلام)، لكنها بحسب ميزان هذه الدراسة، فإنها دستور يقف عليه كل من أدرك أن الإسلام هو الله ورسوله وكتابه وأهل بيته.

كيف هذا؟

إن الله سبحانه اصطفى أنبياءه وخاصته، وأوفدهم إلى خلقه، وأقام معهم الكتاب، ثم بعد أن ختم بمحمد (صلى الله عليه وآله) ترك في الناس الهداة، وبالاستدلال على الذين يهدون بما أنزل الله بلا تردد وما سنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بلا

انقطاع، نلتمس أن الإمام علي(عليه السلام) في هذه الوصية قد فتح نافذة جديدة على متابعة شؤون الطريق إليه به، وستكون هذه النافذة، حول تعريفه بآل البيت وحول بعض ما انكشفت له من حقائقه معرفة الله جلّ وعلا.



- 1 - أنظر بهذا الصدد: الخطبة (172) من ترتيب خطب نهج البلاغة.
- 2 - أنظر: نهج البلاغة: كتاب 36.
- 3 - أنظر: تفسير القمي: 2/138.
- 4 - أنظر: ينباع المودة للفتودوزي: 1/90، النهاية لابن الأثير: مادة (قسم)، بصائر الدرجات للصفار: 191.
- 5 - أنظر: ربيع الأبرار للزمخشري: 1/488، كشف الخفاء للعجلوني: 2/350 (3180) نقلا عن مسلم والترمذي والنسائي، وغيرهم.
- 6 - نهج البلاغة: خطبة 88.
- 7 - المصدر نفسه.
- 8 - المصدر نفسه: خطبة 2.
- 9 - المصدر نفسه: خطبة 92.
- 10 - أنظر: دلائل الإمامة لابن جرير الطبري: 235، البحار للمجلسي: 30/672.
- 11 - نهج البلاغة: كتاب 45.
- 12 - أنظر أمالي الصدوق: 425 (560)، تاريخ ابن عساکر: 42/379.
- 13 - نهج البلاغة: خطبة 81.
- 14 - رنق مشربها وردغ مشرعا: أي ماءها كدر كثير الطين.
- 15 - نهج البلاغة: الخطبة 82.
- 16 - نهج البلاغة: الخطبة 204.
- 17 - نهج البلاغة: الخطبة 203.
- 18 - المصدر نفسه.
- 19 - انفجرتم: دخلتم في الفجر، أي كنت قبل في ظلام: وصرتم إلى ضياء ساطع بهدايتنا.
- 20 - نهج البلاغة: الخطبة 4.
- 21 - أدرجنا مصدر هذا الحديث في مكان آخر.
- 22 - نهج البلاغة: كتاب 31.
- 23 - نهج البلاغة: الخطبة 133.
- 24 - المصدر نفسه.
- 25 - لهذا الحديث مصادر متعددة، منها سنن الترمذي: 6/125 (3788)، مسند أحمد: 3/17 - 26 - 59، مستدرک الحاكم: 3/323 (4634)، وهناك مظان متعددة يمكن الرجوع إليها بخصوصه.

- 26 - في غير الغدير هناك رسائل أفصحت عن حمل علي لراية رسول الله (صلى الله عليه وآله) منها: "قراءة البراءة على الناس، ومنها استخلافه في المدينة، ومنها اعطاءه راية خبير الخ، ينظر على سبيل المثال تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي: 15 - 56.
- 27 - نهج البلاغة: خطبة 52.
- 28 - الأنبياء: 107.
- 29 - المصدر نفسه.
- 30 - نهج البلاغة: الخطبة 182.
- 31 - المصدر نفسه.
- 32 - الرحمن: 60.
- 33 - المصدر نفسه.
- 34 - أي لا تضن الدنيا بمن يباري غيره في اقتنائها وعدّها من نفائسه ولا تحرص عليه بل تهلكه.
- 35 - نهج البلاغة: الخطبة 178.
- 36 - أنظر: نهج البلاغة: الخطبة 10، وغيرها.
- 37 - نهج البلاغة: الخطبة 112.
- 38 - المصدر نفسه.
- 39 - المصدر نفسه.
- 40 - نهج البلاغة: الخطبة 98.
- 41 - راجع تذكرة الخواص: 420.
- 42 - نهج البلاغة: الخطبة 93.
- 43 - نهج البلاغة: الخطبة 185.
- 44 - نهج البلاغة: الخطبة 95.
- 45 - نهج البلاغة: كتاب 45، وقد مرّ.
- 46 - نهج البلاغة: الخطبة 178.
- 47 - نهج البلاغة: الخطبة 4.
- 48 - نهج البلاغة: خطبة 189.
- 49 - نهج البلاغة: كتاب 31.
- 50 - نهج البلاغة: الخطبة 136.
- 51 - نهج البلاغة: قصار الحكم 139.
- 52 - المصدر نفسه.
- 53 - أنظر التذكرة في وصية النبي بأهل بيته، م. س.
- 54 - نهج البلاغة: الخطبة 99.
- 55 - نهج البلاغة: الخطبة 1.
- 56 - نهج البلاغة: الخطبة 2.

- 57 - نهج البلاغة: الخطبة 71.
- 58 - نهج البلاغة: الخطبة 105.
- 59 - نهج البلاغة: الخطبة 147.
- 60 - المصدر نفسه.
- 61 - الأحزاب: 21.
- 62 - نهج البلاغة: الخطبة 160.

من هم آل محمد في خطاب الإمام علي (عليه السلام)

كلما اقتربنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أكثر كلما انفتحت أبواب رحمته علينا، ولفح أرواحنا نوره أكثر، ولعل الحزبية والعشائرية هي أكثر ما تكون بعداً فيما يجب في الإسلام، فالله سبحانه علّم المسلمين أن لا يتفاضل بعضهم على بعض، لا بنسب، ولا بجمال، ولا بقوة، ولا بسلطان، ولا مال، ولا بأي شأن من شؤون الدنيا، وإنما جعل الفضل كما هو معروف عند صغار المسلمين قبل كبارهم، جعله بالتقوى، وجعلها مفتاح العروج إلى سدة رحمته.

وقد تقدّم في بحث الأمة، كيف أن النظرة القرآنية إلى الناس، هي نظرة ترفع المؤمنين أيّاً كانت أعراقهم وأسنتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فقراء كانوا أم أغنياء، أشداء كانوا أم ضعفاء، لونهم أبيض كان أم أسود، وعلى أي أرض وفي أي زمان، بينما تخفض المنافقين والكافرين وجميع من يدخل في تسمية غير المؤمن، وتجعل مرتبتهم في نظر الله تعالى دون من يستحق حتى أن يذكر، ولولا أن الكتاب أتى ليهدي الناس، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، بفضل ربهم، لما رأينا القرآن يعير سوى المؤمنين أية عناية.

من هنا ينبغي أن تعلم! أن الله سبحانه ورسوله، وآل بيته الذين لم يختلفوا في القرآن ولم يخالفوه، جميعاً يدعون إلى أمة واحدة، هي أمة مبنية على الالتزام بمبادئ الإسلام، أي على أساس عقائدي، لا على أي أساس آخر.

هكذا نفهم من كلام الله وكلام رسوله وآل بيته، لذلك عندما نأخذ في تناولنا هنا آل بيت النبي بحسب ما يقودنا إليه كلام الإمام، فإن الذي لا ينبغي أن يظن، أنهم شكلوا حزباً قبلياً، أو اعتصموا بالطريقة الجاهلية في التعامل، وإنما تدأنا سيرتهم على أنهم باعدوا بين من لم يلتزم تعاليم الله تعالى، أو خالفها، وإن كان من خاصة نسبهم، وقربوا من التزم بدين الله تعالى، وإن كان من أبعد الأبعدين عنه.

والمراد من هذا أن علياً (عليه السلام) لما أتى على ذكرهم، لم يكن اتيناه هنا على أسس حزبية أو عشائرية، حاشاه، إنما جاءت موازنته ما بينهم وبين الناس فيما فضلهم الله به عليهم، فهم بحسب تعبيره: "إننا صنائع ربنا، والناس صنائع لنا" (1) (2).

من يملك من المؤمنين والمؤمنات أن يختار رداً لقضاء الله ورسوله إذا اختارا شيئاً، الله سبحانه يقرّر ذلك: (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (3) بهذه الآية المباركة تفهم كلمته بأن أهل البيت صنائع الله، والذي يمعن الإمام في اظهاره هنا، هو الوقوف في وجه من يرغب عن قضاء الله ورسوله، لا عن تعصّب، إنما تنفيذاً لحكمه، والزاماً لغير الراضين.

وهو بعد ذلك يرفد الناس بالاطلاع عليهم مبتدأ بنفسه وبالذور الذي يضطلع به في الناس، ويرجى الالتفات والتأمل هنا في أوضاع المخاطبين، فهو يعبر عن حال الدين بعد الفاصل بين قيادته للأمة "القيادة السياسية هذه المرة" وبين المسافة التي قطعتها الناس فيما تلا وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

يقول: "أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المتشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوة الأسد هيهات أن أطلع بكم سرار العدل (4)، أو أقيم اعوجاج الحق.

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن نرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك" (5).

الملاحظ بلا كثير عناء أن الإمام يوثق في الناس دور الأنمة من جهة، ويظهر الوضع الذي آل إليه الدين بين الناس من جهة ثانية، ويظهر أيضاً وهو الأكثر أهمية هنا بالنسبة لبحثنا، أنه يشير إلى قيامه بأمر الله تعالى، يعرف بحقيقة إمامته، فهو لا

يخرج للناس كي يتسلم زمام سلطة ولا ليتكسب أو يعتاش ويثري، فهذا لم يعرف عنهم آل البيت (عليهم السلام)، لعدم حاجتهم إلى ذلك، شأنهم شأن كل الهداة من رسل وأنبياء، فغايتهم القيام بأمر الله ومحاولة إيصال الناس إليها، ويتزعم علي بن أبي طالب (عليه السلام) هذا الإظهار منذ نومه في فراش رسول الله ليلة هجرته (صلى الله عليه وآله) إلى أن يسلم في الناس عهده إلى ولده الإمام الحسن (عليه السلام).

ويدلنا قوله هنا على أولية لحاقه لرسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول:

"لم يسبقني إلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالصلاة" (6).

هذا في تعريفه بنفسه في البداية، ولم يترك أيضاً النهايات فحدث الناس عما يأتي من ورائه في عدة مواطن من خطبه، نأخذ مثلاً هنا هذا الشاهد، يقول: "إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله" (7).

ونلاحظ أنه (عليه السلام) عندما يستخدم كلمة بعدي، فإنه يشير ليس فقط إلى الحين من الزمان، إنما يشير أيضاً إلى الموقف الذي تتخذه الناس، فإن كان معه "وهو الذي يدور الحق معه حيث ما دار" (8) فإن أصحاب هذا الموقف ظاهر فيهم الحق، وإن كان سوى ذلك، فإن الكلام هنا يفيد عكس الحق، "فبعدي" تشير أيضاً إلى النهج إن استمر فهو لا خروج معه عن دين الله تعالى.

وهذا ينبغي أن يلتصق في الهداة من آل البيت (عليهم السلام)، فهو (عليه السلام) يؤكد أنهم "عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق" (9).

ويعلل الإمام وصفه لآل البيت بقوله: "نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا توتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمى سارقاً".

بدون شك يصل المتأمل للطريقة التي يظهر فيها الإمام حقيقتهم، أي الأئمة من آل البيت (عليهم السلام) تتكشف له ظواهر يلج من خلالها إلى البواطن، فالذي عرف علي (عليه السلام)، عرف أنه أصدق من نطق هو ورسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأنه لم تأخذه في الحق لومه لائم، وهنا يتابع وصفه وتعريفه بهم، يقول:

"فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا" (10).

وفي دمج هذه الخطبة مع قوله: "هم الذين يخبركم حكمهم من علمهم"، نصل إلى أن حقيقتهم جميعاً واحدة، ونقف عند قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) كذلك: "علي مني وأنا منه" (11)، ونعلم أن رسول الله لا ينطق عن هوى، فتكون مع النتيجة الموضوعية أن أئمة الهدى من معدن واحد، جميعاً أنبياء ورسل وأوصياء، بدلالة الحق الذي أظهره الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام) كما تبين في عدة مواطن.

وعندما يستخرج من نصوص الكتاب والسنة، ذاك الفارق بين النور والظلمة، ونقف على حقيقة النور (البصيرة) والظلمة (العمى)، يترتب علينا التوجه إلى الله ورسوله بأنمتنا الهداة (المثل) الذين ينبغي من أجل التعرف على حقيقتهم، أن نلج: نور الله من خلالهم، ونخرج شرك الظلمات من حياتنا، مستدلين على ذلك بقوله (عليه السلام): "بنا اهتديتم في الظلماء"، وهو إذ يقول هذا دائماً لا ينفصل فيه عن كتاب الله ورسوله، وقد أوضح معنى النور في عدة أماكن، وهو الذي سطع بمحمد (صلى الله عليه وآله) وأضاء به (12)، وهو الذي "أجلي به غريب العمى"، وفي توطيد انبثاقه عن الحقيقة المحمدية، يقول (عليه السلام): "بنا يستعطي الهدى، ويستجلي العمى" (13).

هكذا يمهد الإمام علي(عليه السلام) لنا طرقاً معرفته، ويدلنا به وبالقرآن والنبى وآل البيت على ملاذ قلوبنا، على من تسلّم له زمام الأئمة، وتروى من عطشها به الظمأ ويربطنا بوصيته(عليه السلام) هنا في قوله:

"أما وصيتي: فالله لا تشرکوا به شيئاً، ومحمداً فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين"(14).

الكلمة التي تنتهي بأوقدوا هذين المصباحين تلفت الانتباه إلى أمر فيه الأهمية، معناه: إن اتباع الهدى والانتشاف على نور الله ومعرفة الرسول والإمام هي تحت تصرف المرء، أي ليس بعاجز عن فتح أبواب الله تعالى على قلبه، كما أنه ضمن إمكاناته أيضاً اغلاقه، ودعونا ننجز هذا المبحث باقتطاع هذه الكلمات من إحدى خطبه(عليه السلام) في أهل بيت النبوة(عليهم السلام)، يقول:

"لا يقاس بآل محمد(صلى الله عليه وآله) من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين إليهم في الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة"(15).

وإذا أردنا أن نبصر بعد ذلك طريقاً نلتمس به رياض الإسلام وأنوار الكتاب والنبى، فإن علي وآل البيت هم كما قال(صلى الله عليه وآله) الأبواب، وعلينا أن نعرف شيئاً ونلقي سمع الأذن والفؤاد إلى قوله: "أريدكم الله وتريدوني لأنفسكم"، وإذا انتبه قارئ إلى هذه الجملة الآتية من كلامه، وارتعد فواده لقراءتها، عرف طريقاً يسلكه إلى علي بن أبي طالب(عليه السلام) خارج متاهات الاستدلال على الإمام، وفق طرق تغييبه التي اتبعت عند عامة من بحث عنه على شروط توضع من أجل أن يتبوا منصبه، فلا شرط إذن سوى حكمة الله تعالى في اصطناع أنبيائه لنفسه وبعثهم في الناس، وإطلاق الهداة الذين اختصهم فكانوا ممن يلحق بهم التالي، ولا يقاس بهم أحد.

وفي كلمة نختم بها هذا المبحث هنا، هي مثار تأمل لذي لب، يقول(عليه السلام) لشخص امتحنه في أن جعله من عماله، وتعتبر هذه المقولة عن نزوة معرفته بنفسه والحق الذي هو عليه بتمامه وكمال: "لأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار"(16).

ههنا يستقيم لباحث عن إمامه في أعماقه تمام القرار، ويرفد قلبه بسكينة الاستقرار فالذي يعلم أن سيفه يفصل بين النار والجنة، هو الذي أجاب من سأله: هل رأيت ربك؟ فأجابه: "أفأعبد ما لا أرى"(17). وإذا تابع المتأمل الكيفية التي رأى الإمام فيه ربّه، فإنه سيقف على النور الذي لا تنطفئ له شعلة، والحق الذي لا يأتيه الباطل.

الطريق إلى علي(عليه السلام) هو الطريق إلى الله عز وجل

إذا كان فناء علي(عليه السلام) بحبّ محمد(صلى الله عليه وآله) بلغ منه كل هذا المبلغ، وراح يذرف(عليه السلام) نفسه صغيراً ويحامي عنه(صلى الله عليه وآله) يافعاً، ويقاسمه شؤون الدين، ويذب عن حياضه في كل قائمة وقاعدة، ويسوح في كل مصر لنصرته، فكيف برّب محمد(صلى الله عليه وآله) وربّ جميع الوجود.

من استرشد الطريق إلى علي(عليه السلام)، ودخل مدينة علم رسول الله(صلى الله عليه وآله) من بابها، صار إلى فناء الرحمة المحمدية، حتى يبلغ مرتبة من كشف عنه الحجاب، لكن هذا لا يكون إلا ببصيرة راضها حبّ الله.

ربما كانت هذه الكلمات هنا أقرب إلى التذلل منها إلى روح البحث، ولو أن البحث في مقدس هو في هذا المقام، لا يجد له مناصاً من بلوغ عتبة التواضع التي هي شرفة كسب المعرفة.

كتب على مرّ التاريخ المنات من العلماء والفلاسفة حول بداية الوجود وأصله، وذهبت الأمم في هذا مذاهب شتى، منها من قارب الحقيقة، ومنها من زاغ بصره، ومنها من وقف في المنطقة الوسطى.

وثمة من لم يرَ مبرراً للتحرك نحو أشياء لا تدرک، لكن العمق النفسي الإنساني هو في تعريفات الكتاب هنا يساوي "الفطرة"، فالفطرة التي يتحرك فيها شعور البحث عن القوة التي تدير شؤون الحياة، ما زالت مستمرة بالدفع الذي هو من خصائص الحركة، فهي ليست ساكنة في طبيعتها، ولم تستكن إلى اليوم.

وفي تناول هذه الظاهرة، يمكننا النظر إلى مجمل ما قاله الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة وسواه من الكتب التي نقلت إرشاداته للناس، والتي تدخل في معظم نواحيها في عوالم فلسفة المعرفة، فيضع على الأساس للبحث ضمن منطقة القدرة البشرية، ويحزم حقائب الذين يتناولون أو يحاولون تناول ذات الله بالدرس والتأمل، ويشرع لهم طريق الارتحال. وقد لا نجد بدأً هنا من إيراد بعض إضاءاته حول الكيفية التي ينبغي معها للمهتم أن يتعرف على ربه، وهذه المدرسة بالذات هي مدرسة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقد شقَّ عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) بإمداده الناس بمثل هذه المعارف الطريق الذي رسمت فيما بعده المدارس الكلامية مناهجها، وإن لم تكن في المجمل قد بلغت رغبته في تناقل العلم بين الناس، لكنها أثرت في تراث الإنسانية مخزوناً عظيماً من الكتب والبحوث العقائدية والفلسفية.

وفي عروج موجز على الكيفية التي رسم من خلالها للناس طريق التعرف على الله تعالى، نجده يوزع على القلوب مراتب تدرج معها نحو معرفته، يمكن أن نلاحظ أن يفتح باباً للدخول في هذا العالم من جهة الخضوع لله تعالى والاستكانة إلى قراره، ومن جهة أخرى يوسع على المدارك كيفية معرفته، ويحذر في مواطن عديدة من مغبة الخوض في غمرات الجهل، بأعمال العقل في سبيل ادراك كنهه، يقول: "فتبارك الله الذي لا تبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن، الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي"(18).

وفي سبيل اعطاء منتهى الغاية من وراء البحث في معرفة ذات الله تعالى يوقف الإمام القدرة على هذا، ويرجعها إلى أن الذي أمر الله تعالى الناس به هو الذي يكفيهم مؤونة التفكير والعمل، يقول لنا: "فانظر أيها السائل: فما ذلك القرآن عليه من صفته فانتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي(صلى الله عليه وآله)، وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك"(19).

لكن ماذا يفعل من لا يرد على القول، ولا يهديه الهادي إلى سواء سبيله، وقد تقحم غمرات الوهم، أفراد أن يعلم ما هو الله، يجيب(عليه السلام) هنا على هؤلاء في قوله:

"واعلم أن الراسخين في العلم، هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين"(20).

وهو في جميع تناوله لمثل هذه المسألة، لا يدعو تنبيه الناس عدم الدخول في ضلالات الأوهام، ومن أراد أن يضع يده على هذه الحقيقة فليراجع نهجه، وليتزوّد من جماع كلماته.

وفي ادارته دفة صراع النفس مع رغبة المعرفة، يوشك الإمام علي(عليه السلام) تصنيف الأنفس مثلما فعل هنا، عندما قال من هم الراسخون، ويطلب إلى الناس أن يتفكروا قبل ذلك بعظيم خلقه، من أدق المخلوقات حتى أبراج السماوات.

ولهذا النهج غاية، هي التماس قانون الله ورسوله، وإيضاحه في الناس، وهو عند قوله(عليه السلام) "أمرنا صعب مستصعب" يكفي الإنسان بعد ذلك تعب السير وراء ما لا يدرك، فالذين لا يعرفون محمد وآل بيته على حقيقتهم كيف لهم أن يتجاوزونهم إلى بارئهم، ضعف إذن جهدهم، وكنت همهم دون بلوغ ذلك.

وعلى الإجمال يلاحظ في خط الإمام(عليه السلام) أنه يشدد على تناول طرقات الله عبر الطاعات، ولا يقترب المرء من جريرة أعظم من تنازله عن فرائضه، والتزامه مناهج نبيه.

وكما أن الإمام علي(عليه السلام) غايته الله سبحانه، فإن إجابته عن الرؤيا كانت كالتالي: "لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان"(21).

فالغاية من جميع الأمر إذن هو القلب، ومثلما ابتدأت الدائرة الرسالية برمتها منذ آدم إلى يوم المهدي (عج) بالعمل على تطهير القلب، كذلك تختتم به، والذي بلغ النور قلبه انكشفت حقيقة الإمام علي(عليه السلام) عنده، وتقرب إلى الله تعالى باقترابه منه، وابتعد عن الله تعالى بابتعاده عنه.

وقد يعلم من انكشفت له حقيقة إمامه أنه قال: "لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة"(22)، فهو البالغ مبلغ اليقين من ربه، والسلامة من أداء أمانته، ويذهب مطمئناً إلى باريه.

ونختم هذا بوصيته(عليه السلام) التي منها: "واعلم - يا بني - أنك إنما خلقت للأخرة لا للدنيا، وللغناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنت في منزل قُلعة، ودار بلغة، وطريق إلى الآخرة... وإياك أن تغتر بماترى من أخلاذ أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها، فقد نبأك الله عنها... فإنما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهرّ بعضها بعضاً، يأكل عزيزها ذليلها... سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى"(23).

* * *

بهذا نختم هذا الفصل، مع سعة الطلب والرغبة في الزيادة، إنما أردنا أن نشير إلى تحقق الإمامة في علي(عليه السلام)، وفق المنهج الذي اتبعناه وأجرينا عليه بحوثنا.

[هل أنجز الإسلام كلماته]

الحق أنّ الذي نحن بحاجته هنا، هو الجواب عن سؤال كان قد طرح قبلاً، وهو حول القول: في هل أنجز الإسلام كلماته؟ ونفرد هنا هذا المبحث الأخير للإجابة على هذا السؤال، منتبهين إلى مفهوم الإمامة وما يجري عليه من متابعة في بقية أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

الكلمة المنجزة

في الإجابة على هذا التساؤل، نعتقد أن الإسلام بما هو دين إلهي يمتلك القدرة على مرافقة مسيرة البشرية إلى غاياتها القصوى، ومن المسائل الرئيسية في الفكر الديني الإسلامي أنه لا بد من انجاز مشروعه الإنساني على كامل جغرافيا العالم، وهذا ليس من طموح البشر، بل هو الوعد الإلهي الذي أخذه على نفسه.

فلما كان النبي محمد(صلى الله عليه وآله) قد وضع بمعونة الله سبحانه ووحيه، الأسس والأنظمة التي تضبط هذه المسيرة، وترتفع بالإنسان نحو غايته وحقيقته، وتسعى به نحو ارضاء الله سبحانه، مثلما تعمل على توثيق عرى الإنسانية، بهدف رفع الظلم وإقامة العدالة، وشرع بإنشاء دولته وإعلاء كلمة الله، فإنه قد أنجز القسم الأعظم من تطبيق شرائع الله تعالى على الأرض، كما رسم البرامج ووضع الحثيات التي تواتي استمرار هذه القاعدة، كما تواتي عدم الخرق بها.

ومن المعروف أن البشر مع ابتعاد الفاصل الزمني بينهم وبين الرسل والأنبياء، يقومون عن قصد أو غير قصد بتبديل أو تحرير أو تغيير سنتهم وتعليماتهم، وهذا حاصل في الديانات التي سبقت الإسلام.

وبما أن النبي محمد(صلى الله عليه وآله) هو الرسول الخاتم الذي لن يبعث الله من بعده أحد، فقد اقتضت الضرورة الحياتية أن يقوم في الأرض من يحفظ هذا الدين من مثل هذه التغييرات، ولا يقوم هذا الأمر مثلما تبين بشكل عفوي، إنما في الوضع الطبيعي يجب أن يكون الأشخاص الذين يقيمونه بمثابة "صنو لرسول الله"، وهذه ليست نظرية تحتل الخطأ والصواب، بل هذا هو أصل الإسلام، ولدى النظر في السنة النبوية الشريفة، ينكشف لنا أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وضع في ضمن ما وضع من أنظمة وقوانين قاعدة هذا الاستمرار، وقام بتأدية رسالته تامة، وترك للأئمة الذين أخبر الناس بظهورهم وقيامهم بالأمر من بعده، وسماهم وعددهم، وعلينا أن لا نستسلم لدعاوي عدم الصحة، أو الخروقات التي تمت وراء هذه السنة في التاريخ.

ويكفي هنا إيراد نموذج من أحاديثه(صلى الله عليه وآله) في هذا الخصوص كإظهار لهذه الحقيقة، ولا نهدف هنا إلى مناقشتها، لأنّ هذا ليس من أهداف الكتاب، يقول(عليه السلام): "لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش"(24).

ونحن نعتقد بتمام صواب هذا الأمر، لا لأنها وردت في حديث النبي(صلى الله عليه وآله) وحسب، إنّما لعلّ انتهاء الرسالات السماوية من جهة، وضبط استمرار الإسلام من جهة ثانية.

ولما تبين لنا ماهية الإمامة، لم يعد هنالك من حاجة إلى متابعة تفصيلاتها، لكن الذي يقال هنا هو أن الأئمة الذين يسترسلون في القيام بهذا الأمر بين الناس بعددهم الذي أقرّه نبيّ الله، من أجل بلوغ الإسلام هذه الذروة التي رسمها الله سبحانه له، لا من أجل ارضاء هذه الفئة من الناس أو تلك، وأن هذا الإمام هو الذي يمثّل (المثال)، الذي اتّضحت لنا ماهيته بالشكل الذي أمكن أن نفهمه، وهو بهذا اللحاظ الذي يقيم أمر الله نهائياً، أي أن الإسلام ينجز مشروعه كاملاً بتمام ظهور الإمام الثاني عشر، بحسب قول رسول الله(صلى الله عليه وآله) وبحسب قوله سبحانه (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي)(25).

نصل إلى ختام هذا الأمر هنا بأن الكلمة النهائية في الإسلام، تطبيقاً وانجازاً لرسالة نبيّه مرهون به.

منفعة على سبيل الخاتمة

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوم برز الإمام(عليه السلام) في غزوة الخندق: "برز الإسلام كلّه إلى الشرك كله"(26). فقد كان الإمام علي(عليه السلام) يمثّل إسلاماً يتحرك بين الناس، وحين رفع القوم المصاحف في صفين قال الإمام (عليه السلام): "أنا كتاب الله الناطق"(27)، والإمام ولد في الكعبة، وأبونا إبراهيم بعد أن بنى الكعبة دعا ربه أن تكون الإمامة في ذريته، الأمور مقدرة من الله تعالى وليست مصادفة.

وقد أمر الله تعالى أن يتجهوا إلى الكعبة ويصلوا، وحين يقول المصلّي الله أكبر ويتوجه إلى الكعبة يتذكر أن إمامه ولد فيها، وأن الصلاة بلا إمام لا تساوي شيئاً، "ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية".

كما أنّ الإمام علي(عليه السلام) حين تلقى ضربة ابن ملجم قال: "فزت وربّ الكعبة"(28) أي أنه استعمل هذا التعبير (وربّ الكعبة) دون غيره!..

وحين آخى الرسول(صلى الله عليه وآله) بين المهاجرين والأنصار... كان من المتوقع أن يواخي أحد كبار الأنصار أو زعيمهم الذي كان سيتوج ملكاً قبيل وصوله(عليه السلام)، أو في أحد الاحتمالات أن يواخي أكبر الأنصار سنأ لكنه آخى الإمام علي(عليه السلام) تاركاً كل هذه التوقعات، ورغم أن ذلك فيه إحراج شخصي له أمام المنافقين والمشركين ومن لم يدخل الإيمان في قلوبهم تماماً لكنه(صلى الله عليه وآله) (ما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى)(29).

كل هذه الأمور وغيرها كثير خصوصيات لا يشترك فيها مع علي(عليه السلام) إنسان آخر، كائناً ما كان، فلندرس نظرة هذه الشخصية الفريدة الخالدة إلى بعض أمور الحياة، ولنأخذ موضوع العلم والتعلم وموضوع الحكم وهما موضوعان متداخلان. إن المعلم الحق، المعلم بالمطلق هو الله جلّ وعلا الذي (علم آدم الأسماء كلها)(30)، والله تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان، كما أنه علم بالقلم الذي كان ولا يزال الوسيلة الأولى في التعلم والتدوين، كما أنه عزّوجلّ قد أقسم بالقلم وما يسطرون، أي بكل وسائل الكتابة سواء بالقلم أو بغيره، كالحاسوب حالياً وربما وسائل أخرى في المستقبل، وكل خلق الله تعالى قد تعلم منه كما ويتعلم الخلق بعضهم من بعض، فالنبي موسى(عليه السلام)، تعلم من العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علماً، ثم أصبح الأنبياء معلمين لغيرهم، وعلى الناس أن يتعلموا منهم (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(31).

وكذلك على الناس أن يتبعوا من يهديهم إلى الحق ويتعلموا منهم (أمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون)(32)، وقد مرّ معنا تفصيل ذلك، وقد أولى الإمام علي(عليه السلام) مسألة العلم والتعلم أهمية كبيرة فسخر لها قسماً من علمه وأحاديثه.

يقول الإمام علي(عليه السلام): "أشرف الأشياء العلم، والله تعالى عالم يحب كل عالم"(33)، ويقول أيضاً: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، لكن الخير أن يكثر علمك"(34)، ويقول: "العالم حي وإن كان ميتاً، والجاهل ميت وإن كان حياً"(35)، ويقول: "كل وعاء يضيق بما يجعل فيه إلا وعاء العلم، فإنه يتسع"(36).

ثم انظر أخي القارئ الكريم في هذا القول الشهير الذي قاله علي(عليه السلام) وذهب مثلاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: "قيمة كل امرئ ما يحسنه"(37)، أليس فيه أقصى تشجيع للتعلم؟ كما أنه وقبل كل الناس شجع على أن نختار من العلم أحسنه وأنفعه، حين قال: "العلم أكثر من أن يحاط به (يحصى) فخذوا من كل شيء أحسنه"(38) كما أن الإمام(عليه السلام) كان أول من أشار إلى جدلية العلم والتعلم بقوله: "ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا"(39)، وبقوله: "إن الجاهل المتعلم شبيهه بالعالم"(40).

ولا غرو في ذلك فالعلم والتعلم يحتاجان إلى متلقٍ يحمل شخصية مقابلة للأخذ ومن ثم للعطاء... الماء هو نفسه الذي ينزل من السماء، لكن المتلقي أي الأرض تختلف بين مكان وآخر، كما أن الماء الزلال نفسه يتحول في بطون الأفاعي إلى سم زعاف، وكذلك شخصية كل من المتعلم والعالم تختلف من فرد إلى آخر، لذلك فإن الإمام علي(عليه السلام) يركز أساساً على تربية الإنسان ويسعى أن يرشده سواء السبيل.

فإذا صعد علي(عليه السلام) المنبر تمنى أن يسمع منه الناس جميعاً، وأن يأخذوا منه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، أو بتعبيره(عليه السلام): أتمنى أن يعيشوا إلى ضوئي، فهو كالشمس تعطي دفتها ونورها للجميع دون تمييز، ومع ذلك فإن الإمام يركز في الوقت نفسه على عدد من الناس ليطور وعيهم ويزكي إيمانهم ليجعل منهم نموذجاً متميزاً وقدرة حسنة.

ويركز الإمام أيضاً على الفروق الفردية لشخصيات الناس، فيقول: "إن هذه القلوب أوعية، فخبرها أو عاها"(41)، ثم يتناول في قضية العلم والتعلم موضوع المسؤولية في نصب نفسه للناس إماماً: "من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم"(42).

وهذا تأكيد على ضرورة التعلم والفهم والاستيعاب وضرورة تعميق فهم أية مسألة من المسائل، وإن مسألة الدراية تعني أن الناس بحاجة إلى معلمين يوضحون لهم المسائل وإلى مرشدين يهدونهم سواء السبيل، والمرشد كما مرّ يلزم أن يكون مستقيماً يهدي غيره ولا يحتاج لمن يهديه، ولا يحتاج إلا إلى الله الذي يستمد منه النور والهدى، وحيث أن الرجوع إلى معلم

في كل علم أمر مسلم عند كل عاقل، وسينتهي الحال إلى معلم يستلهم من الله تعالى ويعطي الآخرين، وهنا نصل إلى النبي أو إلى الإمام.

موضوع الحكم

إن قضية الرئاسة والحكومة دليلها العقلي قوي وتدعمها التجربة البشرية، إذ ثبت بالاستقراء أن المجتمعات انتهت دائماً إلى رئيس، ونحن نقول: إن الجدير بالرئاسة والإمامة والقيادة هو النبي أو الإمام، لأنه أكمل الأفراد، لأنه اختيار الله تعالى، وقد اهتم الإمام عليّ (عليه السلام) بهذا الموضوع اهتماماً بالغاً وقد اقتبسنا من كلامه في هذا المجال ما يلي:

"شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به" (43) و"عدل السلطان خير من خصب الزمان" (44) و"البغي آخر مدة الملوك" (45) و"يد الله فوق رأس الحاكم ترفرف بالرحمة فإذا حاف [أي ظلم] وكله الله إلى نفسه" (46) و"إذا كان الراعي ذنباً فالشاة من يحفظها" (47).

هذه الأقوال وغيرها يركز (عليه السلام) فيها على ضرورة أن يكون الإمام عادلاً وأن لا يكون ظالماً. أما عن بطانة الحاكم، وأنّ عليه أن يختار هيئة استشارية صالحة وبطانة ناصحة قد قال الإمام عليّ (عليه السلام) قولاً لا أبلغ ولا أروع منه: "من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، فإنه لو غص بغيره لأساغ الماء غصته" (48).

أما عن خطورة منصب الحاكم، وأنه مما لا يحسد عليه لعظم المسؤولية، فقد قال الإمام عليّ (عليه السلام): "صاحب السلطان كراكب الأسد: يُغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه" (49).

والحكومة كلمة مشتقة من الحكمة، الحكمة معناها العقل المليء بالعلم والعمل، فالإنسان الذي يتمتع بعقل سليم راجح وعلم وافر ولا يعمل بهما فلا يقال له حكيم، فالحاكم عليه أن يكون عالماً وأن يعمل بما علمه الله تعالى، وأن الأقوال التي ذكرناها عن الإمام عليّ (عليه السلام) في شروط الحاكم الصالح، تعني من جملة ما تعنيه أنه لا يصلح لها إلا إمام عادل، وذلك حتى يدوم الحكم وتتعزيز هيئته ويقوم العدل بين الناس.

يقول الإمام عليّ (عليه السلام): "إنّ الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس" (50) ويقول أيضاً: "أما بعد، فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقتها في التناصف... وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي... فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا يصلح الولاية إلا بإستقامة الرعية.

فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجزت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، وينست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية واليهما، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هناك الكلمة، وظهرت معالم الجور... فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهناك تذلل الأبرار، وتعزّ الأشرار" (51).

نعود الآن إلى موضوع العلم واختيار الإمام عليّ (عليه السلام) لفئة من الناس وتركيزه عليها ليجعل منها قدوة صالحة، لأن يكون منها الولاية والعمال الذين يختارهم الإمام ليسلمهم مهام قيادية.

يقول (عليه السلام): "إنما قلب الحدث كالأرض الخالية" (52)، يعني أنّ الله أودع في الإنسان كل أساليب التربية، وكل ما في الأمر أنه يحتاج إلى المطر وإلى اختيار نوع المزروعات، فالطفل تربة خصبة صالحة للزراعة، وما عليك إلا أن تتعهدده بال العناية وتختار له المعلومات الحسنة الصالحة، ويقول في وصيته لابنه الحسن (عليه السلام): "ابتدأتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك"

(53)، يعني وأنت شاب طري العود، قادراً على تفهّم الأمور والفصل فيها قبل أن تستفحل إلى شر، فالشر كالشجرة الصغيرة، تستطيع قلعها بسهولة وهي صغيرة طرية الأغصان وقبل أن تمد جذورها عميقاً.
نحن في مدرسة الإمام عليّ (عليه السلام) يجب أن نتفاعل مع فكره، ونعرف من نبعه، ونروي ظمأنا من معينه، ولم أتوسع في هذا الكتاب بذكر فضائل الإمام عليّ (عليه السلام) فهي أكثر من أن تحصى، ولكنني ركّزت على قضية الإمامة وآمل أن أكون قد وفيت الموضوع حقه أو بعض حقه، وهل يمكن فهم قضية الإمامة دون العودة إلى أبي الأنمة؟

-
- 1 - نهج البلاغة: كتاب 28.
 - 2 - آل النبي أسراء احسان الله عليهم، والناس أسراء فضلهم بعد ذلك.
 - 3 - الأحزاب: 36.
 - 4 - أي ان اكتشف ما عرف على العدل من الظلمة.
 - 5 - نهج البلاغة: الخطبة 131.
 - 6 - المصدر نفسه.
 - 7 - نهج البلاغة: الخطبة 147.
 - 8 - أنظر الاحتجاج للطبرسي: 1/191.
 - 9 - نهج البلاغة: الخطبة 147.
 - 10 - نهج البلاغة: الخطبة 154.
 - 11 - ورد مصدر هذا الحديث فيما سبق، فراجع.
 - 12 - راجع الخطبة الثانية من النهج، بعد انصرافه (عليه السلام) من صفين.
 - 13 - نهج البلاغة: الخطبة 144.
 - 14 - نهج البلاغة: الخطبة 149.
 - 15 - نهج البلاغة: الخطبة 2.
 - 16 - نهج البلاغة: كتاب 41.
 - 17 - نهج البلاغة: الخطبة 179.
 - 18 - نهج البلاغة: الخطبة 93.
 - 19 - نهج البلاغة: الخطبة 90.
 - 20 - المصدر نفسه.
 - 21 - نهج البلاغة: الخطبة 179.
 - 22 - نهج البلاغة: كتاب 36.
 - 23 - نهج البلاغة: كتاب 31.

- 24 - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش: 3/1155، مسند أحمد: 5/90، 98، وعند البخاري قريب منه، باب الاستخلاف، ولهذه الرواية أشكال عدة، لكن الهدف هنا هو استمرار قيام من يمثل الرسول(صلى الله عليه وآله) ليس غيره.
- 25 - المجادلة: 21.
- 26 - أنظر اقبال الأعمال لابن طاووس: 2/267.
- 27 - أنظر وسائل الشيعة: 27/34 (33147).
- 28 - أنظر مناقب آل أبي طالب: 1/385.
- 29 - النجم: 3، 4.
- 30 - البقرة: 31.
- 31 - الحشر: 7.
- 32 - يونس: 35.
- 33 - أنظر: شرح نهج البلاغة، الحكم المنسوبة إليه: 20/288 (298).
- 34 - نهج البلاغة: قصار الحكم 89.
- 35 - غرر الحكم: 1481 (1124، 1125).
- 36 - نهج البلاغة: قصار الحكم 195.
- 37 - نهج البلاغة: قصار الحكم 76.
- 38 - غرر الحكم: 1819.
- 39 - نهج البلاغة: قصار الحكم 468.
- 40 - نهج البلاغة: قصار الحكم 311.
- 41 - نهج البلاغة: قصار الحكم 139.
- 42 - نهج البلاغة: قصار الحكم 68.
- 43 - نهج البلاغة: الخطبة 164.
- 44 - مطالب السؤول: 56، نظم درر السمطين: 160.
- 45 - شرح نهج البلاغة: الحكم المنسوبة إليه: 20/334 (831).
- 46 - الكافي للكليني: 7/410.
- 47 - شرح نهج البلاغة، الحكم المنسوبة إليه: 20/300 (418).
- 48 - المصدر نفسه: 20/308 (526).
- 49 - نهج البلاغة: قصار الحكم 254.
- 50 - نهج البلاغة: خطبة 209.
- 51 - نهج البلاغة: الخطبة 216.
- 52 - نهج البلاغة: كتاب 31.
- 53 - المصدر نفسه.